الدولة الفاطمية فى مصر

دكتور محمد جمال الدين سرور

دار الفكر العربي

الدولة الفاطمية فى مصر

سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها

تأليف

الدكتور محمد جمال الدين سرور

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الإدارة : ١١ شارع جواد حسنى

ص . ب ١٣٠ القاهرة - ت : ٣٩٢٥٥٢٣

٩٥٣,٠٧٣٨ محمد جمال الدين سرور .
م ح د و الدولة الفاطمية فى مصر : سياستها الداخلية ومظاهر
الحضارة فى عهدها/ تأليف محمد جمال الدين سرور. -
القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٦٥.
٢٠٧ص ؛ ٢٤سم.
ببليوجرافية : ص [١٨٥] - ١٩٢.
يشتمل على فهارس .
١- مصر - تاريخ - العصر الفاطمى (٩٦٩ - ١١٧١ م)
أ - العنوان .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وبعد؛ فهذا كتاب يتناول تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر، يتجلى لنا فيه: مدى نجاح الفاطميين فى نشر دعوتهم وإقامة خلافتهم بالمغرب، والأحوال الداخلية فى مصر قبل أن يمتد إليها سلطان الدولة الفاطمية، والجهود التى بذلها الفاطميون فى سبيل بسط سيادتهم على مصر واتخاذها مقراً لخلافتهم، والحركات السياسية والدينية التى ظهرت فى العصر الفاطمى الأول بمصر، وازدياد نفوذ الوزراء وما ترتب عليه من نتائج فى العصر الفاطمى الثانى، وتطور نظم الحكم والحضارة فى مصر على عهد الدولة الفاطمية.

أخذ أئمة الإسماعيلية منذ منتصف القرن الثانى الهجرى يوجهون جهودهم إلى نشر دعوتهم فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى. وقد لقيت تلك الدعوة نجاحاً كبيراً فى بلاد المغرب، كان من ثماره خضوع كثير من مدن شمال إفريقية لدعاتهم، ثم قيام الخلافة الفاطمية بتلك البلاد فى أواخر القرن الثالث الهجرى.

ولم يكن سلطان الفاطميين موطداً فى بلاد المغرب فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، ولذلك اتجهت جهود خلفائهم إلى العمل على ضبط الأمور فى تلك البلاد وبخاصة فى المغرب الأقصى . على أن ما بذلوه من جهد فى هذا السبيل لم ينه الاضطراب الذى ساد المغرب ، فسرعان ما قامت

فيه بعض الثورات بعد انتقال المعز لدين الله إلى مصر . مما ترتب عليه ضعف النفوذ الفاطمى فى المغرب .

وكانت مصر فى الوقت الذى أخذ فيه الأئمة الإسماعيلية فى نشر دعوتهم، ولاية إسلامية ، خاضعة لسلطان الخلافة فى بغداد، وكثيراً ما تأثرت أحوالها الداخلية بالسياسة العامة للعباسيين، فوليها ولاة من الأتراك بعد أن ازداد نفوذ العنصر التركى فى العراق فى مستهل القرن الثالث الهجرى، ثم عمد بعض النواب والولاة إلى الاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية بعد أن تطرق الضعف إليها؛ فحاول أحمد بن طولون – الذى حكم مصر نائباً عن واليها التركى – توطيد سلطته فى هذه الولاية. ثم لم يلبث أن انفرد بتدبير شئونها، وأقام بها دولة مستقلة، عرفت باسم الدولة الطولونية، ظلت نحو ثمانية وثلاثين عاماً (٢٥٤ – ٢٩٢ هـ)، ثم عادت مصر إلى سلطان العباسيين .

لم تنعم البلاد المصرية بالهدوء والاستقرار فى الفترة التى عادت فيها إلى الخلافة العباسية بسبب السياسة التى اتبعت فى تعيين الولاة وعزل بعضهم مراراً، فضلا عن النزاع والتنافس على حكمها . وكان سوء الأحوال فى مصر مما شجع الفاطميين فى بلاد المغرب على التطلع لغزوها، فوجهوا إليها عدة حملات، تصدت لها قوات من جند العراق ومصر .

على أن تلك الفترة التى عادت فيها مصر إلى حكم العباسيين لم تستمر طويلا، فقد انتهت منذ أن قلد الخليفة الراضى محمد بن طغج الأخشيد ولايتها سنة ٣٢٣هـ لبلائه فى صد الجيش الفاطمى عن البلاد المصرية، واستطاع الأخشيد بفضل الوفاق الذى ساد علاقته بالخلافة العباسية أن يوطد سلطته فى مصر، فأصبح له حق توريث إمارتها لأبنائه من بعده مدة ثلاثين سنة. غير أن أولاد الأخشيد لم يتيسر لهم إدارة شئون الولاية بأنفسهم، فولى

الوصاية عليهم كافور الأخشيدى الذى باشر أمور البلاد المصرية مع أعوانه؛ وما لبث أن استأثر بالسلطة فيها . ثم اضطربت الحالة السياسية فى مصر بعد وفاة كافور؛ فاستغل هذه الفرصة الفاطميون لتحقيق أمنيتهم فى بسط سلطانهم على تلك البلاد .

وكان الفاطميون يرون أن بلاد المغرب لاتصلح لتكون مركزاً لدولتهم، ومن ثم اتجهت أنظارهم إلى مصر ؛ فأنفذوا إليها فى مستهل القرن الرابع الهجرى عدة حملات أخفقت جميعها فى تحقيق غايتها ؛ ثم لجأ الفاطميون إلى كسب صداقة الأخشيديين، حتى إذا ما جاء الخليفة المعز لدين الله حاول إعادة الكرة للاستيلاء على البلاد المصرية ؛ وقوى عزمه على غزوها حين استنجد به أولو الرأى فى تلك البلاد لينقذ بلادهم من الفوضى التى انتشرت فيها ؛ فأعد حملة بقيادة جوهر الصقلى ، تمكنت من ضم مصر إلى حوزة الفاطميين . ثم أسس جوهر مدينة القاهرة، كما بنى الجامع الأزهر . ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يمهد لاتخاذ القاهرة مقراً للخلافة الفاطمية، فقضى على الدعوة العباسية، وأحل محلها الدعوة الفاطمية ورسومها . وما لبثت ولاية مصر أن أصبحت بعد قدوم المعز إليها دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب .

اتخذ الفاطميون - بعد أن استقر سلطانهم فى مصر - وسائل مختلفة فى معاملة سكانها من الطوائف الدينية والعناصر الأجنبية فركزوا اهتمامهم فى تحويل المصريين السنيين إلى المذهب الشيعى، لكنهم لم ينجحوا فى ذلك السبيل، فظل المذهب السنى محتفظاً ببعض مظاهر قوته فى مصر، أما فيما يتعلق بأهل الذمة، فإن الفاطميين قربوهم إليهم وأحاطوهم برعايتهم وتسامحهم بعد أن أيقنوا من تعذر اعتمادهم على السنيين . غير أنهم لم يتمسكوا طيلة

عهدهم بهذه السياسة، فكثيراً ما اضطروا إلى العدول عنها، ولم يعمل الفاطميون على مجافاة العناصر الأجنبية، بل ساروا على طريقة العباسيين فى الاستعانة بهم. وكان لتزايد عددهم وتنافس طوائفهم أثر سيئ فى حالة مصر الداخلية .

وكانت مصر فى مستهل العصر الفاطمى تحتل مكاناً مرموقاً بين الدول المعاصرة لها وتنعم بالرخاء والاستقرار . غير أن الأحداث التى طرأت على هذه البلاد منذ أواخر القرن الخامس الهجرى أضعفت من شأنها، فقد اضمحل سلطان الخلافة الفاطمية وأخذ نفوذ الوزراء فى الازدياد، وأصبح فى أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم، بل انصرف بعضهم عن الاحتفاظ بمظاهر المذهب الفاطمى، وحاول البعض الآخر إحياء المذهب السنى. كما تنافس كبار رجال الحكومة الفاطمية على منصب الوزراء؛ واستعان بعض الطامعين فى هذا المنصب بأمراء الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى السيطرة على مصر الأمر الذى مهد السبيل لزوال الخلافة الفاطمية .

على أن أهم ما اتصف به العصر الفاطمى فى مصر هو النهضة التى ظهرت آثارها فى جميع نواحى الحياة المصرية؛ فإلى جانب ما نلمسه من تطور فى نظم الحكم والإدارة، نلحظ اهتمام الفاطميين بتنمية الثروة مما ساعد على انتشار الرخاء فى البلاد ؛ وفضلا عن ذلك فقد اتخذت الحياة الاجتماعية فى هذا العصر عدة مظاهر؛ فبلغ الترف والبذخ أقصاه فى بلاط الخلفاء والوزراء، كما تجلت قوة الشعور الإسلامى فى مواكبهم ورسومهم أيام الأعياد والمواسم الدينية .

وكان من مظاهر تطور الحضارة فى العصر الفاطمى نشر الثقافة العلمية والأدبية، فضلا عن الثقافة المذهبية التى تتصل بالمذهب الإسماعيلى؛ فعنى

الفاطميون بإنشاء المكتبات والمعاهد العلمية، كما شجعوا العلماء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب مما كان له أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية فى مصر فى ذلك العصر؛ فأصبح كثير من أبنائها طلابا للعلم وأنصاراً للأدب، كما وفد إلى معاهدها بالقاهرة كثير من أعلام المشرق .

* * *

وقد بدأت الكتاب ببحث قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب، والسياسة التى اتبعها الفاطميون لتوطيد نفوذهم فى تلك البلاد حتى منتصف القرن الرابع الهجرى . ثم تحدثت عن الأحوال الداخلية فى مصر إبان الفترة التى قضاها الفاطميون فى تأسيس دولتهم فى الشرق وبسط سيادتهم على المغرب . وبينت سياسة هذه الدولة الجديدة فى مد سلطانها إلى مصر واتخاذ القاهرة مقراً لها.

كذلك تناولت بالبحث الحركات السياسية والدينية فى مصر فى العصر الفاطمى الأول؛ فوضحت سياسة الفاطميين مع المصريين على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم، وشرحت أسباب كثرة العناصر الأجنبية فى مصر وقتذاك، ومدى تأثر حالة مصر الداخلية من جراء استعانة الفاطميين بهذه العناصر .

وعنيت أيضاً بتوضيح الظروف التى أدت إلى ازدياد نفوذ الوزراء واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء فى العصر الفاطمى الثانى؛ كما تحدثت عن انصراف بعض وزراء هذا العصر عن تأييد المذهب الفاطمى، وتنافس كبار رجال الدولة على منصب الوزراء، وما كان لذلك من أثر فى القضاء على الخلافة الفاطمية .

ومن الموضوعات التى أوليتها اهتمامى: حضارة مصر فى العصر الفاطمى، فبحثت التطورات التى طرأت على نظم الحكم والإدارة فى ذلك العصر، وبينت مدى ماوصلت إليه مصرمن تقدم فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة، وماتجلى فيها من رقى الحياة الاجتماعية وازدهار الحركة العلمية والأدبية .

والله أسأل أن يوفقنى لمتابعة البحث فى تاريخ الدولة الإسلامية وحضارتها.

محمد جمال الدين سرور

القاهرة فى ٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٥ هـ

٣٠ سبتمبر سنة ١٩٦٥ م

فهرس موضوعات الكتاب

الباب الأول

قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب

صفحة

الباب الثانى

الأحوال الداخلية فى مصر قبل أن يستقر فيها سلطان الفاطميين

صفحة

الباب الثالث

السيادة الفاطمية فى مصر

الباب الرابع

الحركات السياسية والدينية فى العصر الفاطمى

الباب السادس

النظم والحضارة فى العصر الفاطمى بمصر

صفحة

الباب الأول

قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب

١ – الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الخلافة الفاطمية .

٢ – سياسة الفاطميين فى توطيد سلطانهم بالمغرب .

الباب الأول
قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب

١ – الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الخلافة الفاطمية

لما ظفر العباسيون بالخلافة لم يرحب بهم العلويون من أبناء الحسن بن على والحسين بن على بن أبى طالب، واستمر النزاع بين الفريقين طوال العصر العباسى الأول حتى أصبحنا لانجد تاريخ خليفة عباسى خالياً من الحروب ضد العلويين .

غير أن أحفاد الحسن بن على المعروفين بالحسنيين لم يكونوا فى أوائل العصر العباسى الأول متفقين مع أحفاد الحسين بن على الذين عرفوا بالحسينيين فقد تخلى جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية، وأخذ يعمل فى الخفاء ليمهد السبيل لأبنائه من بعده للوصول إلى الخلافة، واستطاع جعفر الصادق بحسن سياسته أن يقنع بقايا العلويين من أحفاد الحسن بن على الذين التفوا حوله – بعد أن بدد العباسيون شملهم– أنه الوارث الحقيقى لعلى وفاطمة .

انحصرت زعامة العلويين منذ أواخر العصر الأموى، وأوائل العصر العباسى فى جعفر الصادق – وهو الإمام السادس عند طائفة الإمامية –، وكانت هذه الطائفة تذهب إلى أن الإمامة تكون فى سلالة على عن طريق ابنه الحسين، وأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين،

ولا تكون إلا فى الأعقاب [١]. وقد خرج بعض الإمامية على هذه التعاليم بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ، وانقسموا إلى طائفتين :

١ - الإمامية الموسوية وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد الإمامية الاثنا عشرية . وقد قالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع .

٢ - الإمامية الإسماعيلية وقد قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وكان أكبر أولاد أبيه جعفر .

ويروى أن الصادق خلع ابنه إسماعيل من الإمامة وأحل ابنه موسى الكاظم محله لمسائل نسبت إليه. وقد اعترض الشيعة الذين كانوا يميلون إلى إمامة إسماعيل على خلعه، كما لم يعترفوا بأحقية جعفر الصادق فى نقل الإمامة إلى موسى الكاظم .

ولما توفى إسماعيل فى حياة أبيه سنة ١٤٥هـ، رأى أتباعه أن الإمامة يجب أن تنقل بعد وفاة جعفر الصادق إلى حفيده محمد بن إسماعيل طبقاً لتعاليمهم التي تنص على أن الإمامة لا تنتقل من أخ إلى أخ، بل يجب أن تظل فى الأعقاب ، وبذلك حولوا إليه الإمامة وأصبح الإمام السابع عندهم، ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية لتمييزهم عن طائفة الاثنا عشرية .

أما الإمامية الموسوية، فقالوا إن الإمامة بعد موسى الكاظم تنتقل إلى ابنه على الرضا، ثم إلى أعقابه من بعده حتى الثانى عشر من أئمتهم وهو محمد المنتظر بن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا. وعرفت هذه الطائفة باسم الإمامية الاثنا عشرية لانتظارهم إمامهم الثانى عشر، ويقال إن محمداً دخل سرداباً فى مدينة سامرا سنة ٢٦٠هـ وأمه تنظر إليه، ولكنه لم يعد ولم يقف له أشياعه على أثر من ذلك الحين .

---

(١) انظر : كتاب فرق الشيعة لأبى محمد الحسن النوبختى، ص ٥٧ - ٥٨ ، ٧١ - ٧٢

ولا يزال أنصاره ينتظرون عودته، ويعتقدون أنه سيظهر ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً، ومن ثم سمى الإمام المنتظر .

انتقلت إمامة الإسماعيلية، إلى محمد بن إسماعيل بعد وفاة جده جعفر الصادق، وأمعن أنصاره فى التخفى ونشر الدعوة[١] له سراً أيام الخلفاء العباسيين المهدى والهادى والرشيد . ولما ذاعت دعوته فى خلافة الرشيد أيقن أن بقاءه بالمدينة المنورة سيسهل على العباسيين مهمة تتبع حركاته والتخلص منه، فرحل منها شرقاً، وأخذ ينتقل بين بلاد الدولة الإسلامية ، فذهب إلى الرى، ثم انتقل إلى جبل دماوند القريب منها، واستقر هناك بقرية تدعى سملا، أطلق عليها فيما بعد اسم محمد أباد نسبة إليه .

كان محمد بن إسماعيل يعتمد فى نشر دعوته على رجل اسمه ميمون القداح، ويقول عنه الإسماعيلية إنه من نسل سلمان الفارسى. ولما توفى محمد خلفه فى الإمامة عبد الله الرضى الذى أمعن فى التخفى واتخذ عبد الله بن ميمون القداح داعية له .

يرجع السبب فى اختفاء الأئمة الذين تولوا الإمامة بعد محمد بن إسماعيل إلى ماذهب إليه الإسماعيلية من أن الإمام يجوز له أن يستتر إذا لم تكن له قوة يظهر بها على أعدائه . ومن المرجح أنهم نهجوا هذه الطريقة خشية أن يلحق بهم مالحق أتباع طائفة الإمامية الاثنا عشرية من الاضطهاد والقتل .

استقر الإمام عبد الله الرضى بسلمية من أعمال حمص. وكان العباسيون قد تتبعوه فى عهد المأمون مما اضطره إلى الهرب مع ابنه أحمد ولى عهده فى الإمامة، فقصدا مازندران والأهواز ثم رحلا إلى قرية سلمية التى لم تلبث أن أصبحت دار هجرة للأئمة الإسماعيلية، ولما توفى عبد الله تولى ابنه أحمد

(١) هذه الدعوة هى التى نبتت منها الخلافة الفاطمية .

إمامة الإسماعيلية ، فاتخذ عبد الله بن ميمون القداح داعية له كما اتخذه أبوه من قبل[١] .

أصبحت سلمية المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية منذ أن اتخذها الأئمة الإسماعيلية دار هجرة فى عهد المأمون العباسى، فكان يخرج منها الدعاة لنشر دعوتهم فى البلاد الإسلامية ، وظلت على هذه الحال أيام الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله الذى استطاع أن يقيم فى سلمية آمناً مطمئناً دون أن تناله يد العباسيين. والواقع أن كرم الإمام الحسين، وبذله الأموال الكثيرة وتفانيه فى إظهار حبه للهاشميين، وتفانى أنصاره فى طاعته، كل ذلك ساعد على ذيوع الدعوة فى سلمية .

اتسمت أيام الإمام الحسين بن أحمد بانتشار الدعوة الإسماعيلية فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى، ففى بلاد اليمن أخذ كل من على بن فضل اليمنى وأبى القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى منذ وصلا إليها سنة ٢٦٨ هـ فى نشر الدعوة الإسماعيلية، ونجحا فى ذلك نجاحاً كبيراً، ثم بنى ابن حوشب حصناً بجبل لاعة (جنوبى صنعاء) وأعد جيشاً زحف به على صنعاء وأخرج منها بنى يعفر، وتمكن بمعاونة دعاته من التغلب على كثير من أرجاء اليمن [٢] . ثم بعث ابن حوشب الدعاة إلى اليمامة وعمان والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب [٣] . وكان مبعوثاه إلى المغرب أبا سفيان والحلوانى. وقد نصح لهما ابن حوشب بأن يبتعد كل منهما عن صاحبه فى نشر دعوة الإسماعيلية ويمهدا بعملهما لظهور المهدى ودولته .

---

(١) حسن إبراهيم وطه شرف : كتاب عبيد الله المهدى، ص٤١ – ٤٤

(٢) كتاب النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف ص ٦٢ – ٦٣

(٣) ابن خلدون : جـ٤ ص ٣١

وكان الإمام الحسين بن أحمد يحرص على نشر دعوته فى بلاد المغرب، فأرسل أبا عبد الله الشيعى إلى ابن حوشب باليمن سنة ٢٧٨هـ وأمره بالدخول فى طاعته والاقتداء بسيرته على أن يرحل بعد ذلك إلى المغرب لينشر بها الدعوة الإسماعيلية، فقدم أبو عبد الله على بن حوشب وصار من كبار أصحابه، وأقام باليمن عاماً واحدا [١] .

ولما اتصل بابن حوشب نبأ وفاة أبى سفيان والحلوانى بالمغرب، عهد إلى أبى عبد الله الشيعى القيام بالدعوة إلى المذهب الإسماعيلى فى تلك البلاد وقال له : إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان، وقد ماتا وليس لها غيرك. فبادر فإنها موطأة ممهدة لك[٢] .

غادر أبو عبد الله الشيعى بلاد اليمن قاصداً مكة، فوصلها فى موسم الحج سنة ٢٧٩هـ، وسأل أبو عبد الله عن حجاج كتامة واجتمع بهم، فسمعهم يتحدثون عن فضائل آل البيت، فاشترك معهم فى الحديث، ثم سألوه عن الجهة التى سوف يرحل إليها بعد الحج ، فقال إنه يريد مصر ، فسروا بصحبته ورحلوا من مكة وهو يخفى عنهم أغراضه ، ومالبثوا أن تعلقوا به لما شهدوه من ورعه وزهده .

وقد استطاع أبو عبد الله بما [illegible] من ضروب الحيل أن يقف على جميع أحوال حجاج كتامة، فلما وصلوا مصر أخذ يودعهم، فشق عليهم فراقه وسألوه عن حاجته بمصر دون غيرها من البلاد، فقال إنه يريد أن يطلب فيها العلم ، فقالوا له : «فأما إذا كنت تقصد هذا، فإن بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ونحن أعرف بحقك»، وما زالوا به حتى أجابهم إلى المسير بصحبتهم[٣]

(١) انظر : كتاب «عبيد الله المهدى» . ص٧٦ .

(٢) المقريزى . اتعاظ الحنفا ، ص ٧٤ – ٧٥

(٣) المقريزى · اتعاظ الحنفا ، ص ٧٥

ولما أصبحوا على مقربة من بلادهم كتامة، خرج إلى لقائهم أصحابهم الذين انتشرت بينهم تعاليم الشيعة على يد دعاة الإسماعيلية من قبل .

وكان التشيع قد انتشر فى بلاد المغرب على يد الإمام إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى فر من أيدى العباسيين بعد موقعة فخ فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩هـ، وأقام الأدارسة فى المغرب الأقصى دولة علوية سنة ١٧٢هـ، تعرف بدولة الأدارسة التف حولها البربر، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضاً صالحة للدعوة الإسماعيلية، وكان ذلك مماسهل على كل من الداعيين أبى سفيان والحلوانى نشر الدعوة للمهدى من آل على. وصار الناس يتحدثون فى تلك البلاد عن قرب ظهور المهدى، فلما ذهب أبو عبد الله الشيعى إلى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠هـ وجد الأمور ممهدة له، كما وجد التشيع قد استقر فى عقول البربر واعتنقه كثير من وزراء الأغالبة الذين قامت دولتهم فى إفريقية (تونس) على يد إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ (٨٠٠م) وظلت قائمة إلى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦هـ .

أكرم أهالى كتامة وفادة أبى عبد الله الشيعى وأحلوه من أنفسهم محل الإجلال والإكرام، وتهافت كل منهم على إنزاله فى بيته ، وازداد التفاف المغاربة حوله بسبب ما كان يخبرهم به من أنه البشير بالمهدى . ولم يلبث أبو عبد الله أن كشف عن نواياه لرجال كتامة، فقال لهم : «أنا صاحب البذر الذى أخبر به أبو سفيان والحلوانى ، فازدادت محبتهم له ، وعظم أمره فيهم وأتته القبائل من كل مكان (١)، وظل أبو عبد الله موالياً لإمام الإسماعيلية بسلمية الحسين بن أحمد الذى عرف أيضاً باسم محمد الحبيب، يرسل إليه رسله وهداياه .

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٧٦ – ٧٧ .

لم يكتف أبو عبد الله الشيعى بنشر الدعوة للفاطميين فى بلاد المغرب، بل أخذ يعمل منذ سنة ٢٨٩هـ على بسط نفوذهم فى شمال إفريقية، فوقعت فى يده عدة مدن. وكان مما ساعد على تقدمه فى الفتوح موت إبراهيم الثانى بن أحمد ابن الأغلب أمير الأغالبة بإفريقية سنة ٢٩١هـ، ولحاق ابنه أبى العباس عبد الله به الذى لم يبق فى الإمارة سوى تسعة أشهر، فخلفه ابنه زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغالبة الذى انصرف إلى اللهو والترف بينما كان وزراؤه يعملون على نجاح المذهب الشيعى الذى اعتنقه أهالى هذه البلاد. ولم تنقطع الحرب بين قوات كل من أبى عبد الله الشيعى وزيادة الله الثالث حتى سنة ٢٩٦هـ حيث دارت واقعة الأربس[١] التى أدت إلى زوال دولة الأغالبة بإفريقية، وامتد نفوذ الفاطميين فى ذلك الوقت إلى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق فى جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان[٢] .

* * *

كان دعاة الإسماعيلية باليمن يعتقدون أن دولة المهدى ستظهر فى بلادهم ، كما حرص رؤساؤهم على أن يكون قيامها على أيديهم ، وكذلك كانت الحال بين دعاة الإسماعيلية فى بلاد المغرب ، إذ كانوا يرجون قدوم المهدى إليهم لإقامة دولتهم المنشودة ، ولذا أنفذ زعيمهم أبو عبد الله الشيعى ـ بعد أن استقر به المقام فى هذه البلاد وصادفت دعوته شيئاً كثيراً من النجاح – إلى عبيد الله بن الإمام الحسين بن أحمد – وهو بسلمية – وفداً من رجال كتامة يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب [٣] . وكانت بلاد المغرب وقتذاك تشمل عدة دول وإمارات وهى دولة الأغالبة فى إفريقية (تونس) ودولة الأدارسة فى

(١) كانت فيما بعد تعد باب المهدية .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠ – ٥١ .

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢، ص١١

المغرب الأقصى، وإمارة بنى مدرار فى سجلماسة، وإمارة بنى رستم فى تاهرت بالمغرب الأوسط[١] .

كان الخليفة المكتفى العباسى قد وصله إذ ذاك خبر ذيوع الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن والمغرب ، فعهد إلى بعض رجاله بتعقب حركات عبيد الله والقبض عليه. فخرج عبيد الله من سلمية بعد مقابلته وفد كتامة ووقوفه على مدى نجاح الدعوة فى بلاد المغرب وأخبر أتباعه أنه سيقصد اليمن[٢] .

على أن عبيد الله لم يكن راغباً رغبة أكيدة فى إقامة دولته ببلاد اليمن، بل أزمع الرحيل إلى بلاد المغرب منذ خرج من سلمية تلبية للدعوة التى وجهها إليه داعيته أبو عبد الله الشيعى. وقد أدى به حرصه على ألا يقع فى قبضة العباسيين إلى إخفاء حقيقة الجهة التى سيقصدها؛ فلما وصل إلى مصر اتضح لداعى دعاته فيروز أنه سيقصد المغرب فشق ذلك عليه، وتخلف عن المسير مع الإمام عبيد الله ومضى إلى اليمن[٣] . أما عبيد الله فرحب به أتباعه بمصر وعلى رأسهم داعيته أبو على الذى طلب من ابن عياش أن يسمح له بالإقامة فى داره ويكرم وفادته. وكان ابن عياش يخلص للمذهب الإسماعيلى وأنصاره ويتمع بمنزلة كبيرة عند ولاة مصر.

بذلت الخلافة العباسية جهوداً كبيرة للقبض على عبيد الله، لكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلا بفضل ما قدمه له أنصاره من معونة، ذلك أنه لما جاءت أوامر الخليفة العباسى إلى والى مصر محمد بن سليمان الكاتب بالقبض على المهدى، تمكن أنصاره من إيهام الوالى أن عبيد الله رجل هاشمى يحترف

---

(١) انظر زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى جـ١ . ص ١٠٠ – ١٠١، ١٠٢.

(٢) النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف : ص ٦٤ – ٦٥

(٣) النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف : ص ٦٥ – ٦٦

التجارة وأن الشخص المقصود فر إلى اليمن، كما أن هذا الوالى نفسه لم يكن وفياً للعباسيين، فأمر بالقبض على بعض غلمان المهدى وضربهم ضرباً خفيفاً وأهمل شأن المهدى .

لما بلغ العباسيين أن محمد بن سليمان الكاتب تهاون فى القبض على عبيد الله المهدى، ولوا عيسى بن محمد النوشرى[١] على مصر بدلا منه: فقدم إليها فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٢هـ وكان كثير من حاشية هذا الوالى يدينون بعقائد المذهب الإسماعيلى ، فحذروا عبيد الله المهدى مما قد يحيق به من خطر العباسيين الذين كانوا إذ ذاك يتعقبونه ويبثون العيون عليه؛ فقرر الرحيل من مصر.

خرج عبيد الله من الفسطاط مرتدياً زى التجار يريد المغرب، غير أن عيسى النوشرى لحق به وقبض عليه، لكنه مالبث أن أطلقه بعد أن رشاه بمال كبير. ولم تقف متاعب عبيد الله عند هذا الحد، فقد هجم على قافلته وهى فى طريقها إلى طرابلس جماعة من البربر عند الطاحونة (وهى موضع فى برقة) ونهبوها[٢] .

لما وصل عبيد الله المهدى إلى طرابلس، بعث رسلا من قبله إلى داعيه أبى عبد الله الشيعى يخبره أنه فى طريقه إليه . ومن هؤلاء الرسل الذين أنفذهم عبيد الله إلى المغرب أبو العباس أخو عبد الله الشيعى وجماعة من الكتاميين، غير أن زيادة الله الثالث أمير الأغالبة قبض على أبى العباس هذا بالقيروان وعذبه ليدله على الجهة التى يقيم فيها المهدى، فلم يجبه، واستطاع عبيد الله بفضل الأموال التى أعطاها لعامل طرابلس أن يهرب مع أتباعه إلى سجلماسة[٣] بالمغرب الأقصى .

(١) كان عيسى بن محمد النوشرى من بين القواد الذين قدموا مع محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر للقضاء على الدولة الطولونية (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٣ ، ص ١٤٥) .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٨٣

(٣) ابن الأثير : جـ٨ ص ١٤ .

ظل عبيد الله فى بداية الأمر طليقاً فى سجلماسة بسبب إغداقه الأموال على واليها اليسع بن مدرار؛ غير أن معاملة والى سجلماسة لعبيد الله ما لبثت أن تبدلت بعد انتصار أبى عبد الله الشيعى على الأغالبة سنة ٢٩٦هـ إذ خشى مما سوف تتطور إليه الحال بعد ذلك؛ فقبض على عبيد الله وزجه هو وأتباعه فى السجن .

كان أبو عبد الله إذ ذاك يمد نفوذه على معظم أرجاء المغرب عن طريق الحرب والفتح، فدخل رقادة مقر إمارة الأغالبة، وحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة، ثم سار فى قوة كبيرة إلى سجلماسة لإطلاق عبيد الله من سجنه، ولما علم اليسع بن مدرار أمير سجلماسة بوصول أبى عبد الله الشيعى إليها، هرب ليلا وخلا الجو لأبى عبد الله، فأطلق داعى الفاطميين سراح عبيد الله المهدى وابنه أبى القاسم[1] .

أخذت البيعة لعبيد الله المهدى بسجلماسة، وتلا ذلك تقليد أبى عبد الله الشيعى سيفاً ومنحه خلعة للدلالة على مكانته، وأخذ أبو عبد الله يقدم إلى عبيد الله أشياعه وأنصاره ثلاثة أيام كاملة، ثم رحل عبيد الله عن سجلماسة – بعد أن أقام بها أربعين يوماً – قاصداً إفريقية فى حفل كبير من العساكر – وكان أبو عبد الله الشيعى ورؤساء كتامة مشاة بين يديه وولده خلفه – فلما اقترب من رقادة تلقاه أهلها وأهل القيروان بالترحاب، ثم نزل بقصر من قصور رقادة واتخذها حاضرة له فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ وأمر بذكر اسمه فى الخطبة من منابر البلاد وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين[2]، وبذلك قامت الخلافة الفاطمية فى شمال إفريقية .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٧٨ – ٩٠ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٩٢ .

سياسة الفاطميين فى توطيد سلطانهم بالمغرب

أرسل عبيد الله المهدى بعد إعلان خلافته عمالا إلى الولايات المختلفة واختارهم من زعماء كتامة وممن يثق بهم من المغاربة، وعهد إلى أبى عبد الله الشيعى بإخضاع بلاد المغرب الأوسط والأقصى لأن أهلها لم يدينوا له بالطاعة: فخرج أبو عبد الله سنة ٢٩٧هـ مع بعض قادة كتامة ودعاتهم إلى تلك البلاد، فافتتح مدنها، ثم سار على رأس جيش سنة ٢٩٨هـ لإخضاع قبائل زناته جنوبى بلاد كتامة، فدخلوا فى طاعته وصار يجبى منهم الأموال(١) .

وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية تدين بظهورها لأبى عبد الله الشيعى، فإن عبيد الله المهدى لم يلبث أن عمل على التخلص منه؛ لأن أبا عبد الله كان موضع ثقة كثير من الكتاميين، كما علمت مكانته بين أهالى بلاد المغرب مما أثار حنق عبيد الله المهدى عليه، فخشى أن يفتتن به الناس فيضعف بذلك نفوذه، لذلك أمر بقتل كل من أبى عبد الله وأخيه أبى العباس فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٨هـ(٢) .

أثار حادث مقتل أبى عبد الله الشيعى أهالى بلاد المغرب، فثارت طرابلس، واشتبك الكتاميون مع أهل القيروان، غير أن عبيد الله مالبث أن تمكن من إخماد تلك الثورات. ثم عهد عبيد الله المهدى إلى ولده أبى القاسم بالخلافة من بعده، وبعثه على رأس حملة لمحاربة الكتاميين الذين عادوا إلى بلادهم وأقاموا طفلا ادعوا أنه المهدى ، وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت ، فقاتلهم

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ص ١٦٢

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٩٣ - ٩٥

أبو القاسم وأوقع بهم الهزيمة وقتل الطفل الذى ولوه باسم المهدى[١] .

رأى عبيد الله المهدى بعد أن تخلص من أبى عبد الله الشيعى وأخضع الكتاميين أن يستعين فى إدارة دولته بولاة آخرين، يطمئن إليهم، فولى على المغرب الأدنى حباسة بن يوسف، وعين على بلاد المغرب الأوسط والأقصى أخاه عروبة بن يوسف؛ وكان مقره تاهرت .

كذلك وجه عبيد الله المهدى عنايته إلى إخضاع قبائل صنهاجة، بالمغرب الأقصى والقضاء على نفوذ الأدارسة فى فاس، وعهد بذلك إلى قائده مصالة بن حبوس الذى نجح فى الاستيلاء على «ناكور» حاضرة الصنهاجيين سنة ٣٠٨هـ، ثم اتجه نحو الأدارسة فى فاس والتقى بيحيى بن إدريس بالقرب من مكناسة، فأوقع به الهزيمة واضطر يحيى إلى طلب الصلح على أن يؤدى إليه بعض الأموال ويبايع لعبيد الله المهدى، فولاه مصالة على فاس، كما ولى موسى بن أبى العافية على سائر بلاد المغرب الأقصى. ومالبث موسى أن تغلب على ملك الأدارسة ببلاد المغرب ، وقصد يحيى بن إدريس مدينة المهدية حيث قضى بها بقية حياته.

استقرت الأمور لموسى بن أبى العافية فى بلاد المغرب الأوسط والأقصى منذ زال نفوذ الأدارسة من فاس فى عهد عبيد الله المهدى ، وأخذ نفوذه فى الازدياد بعد وفاة مصالة بن حبوس القائد الفاطمى سنة ٣١٢ هـ حتى أصبح يهدد كيان الفاطميين فى بلاد المغرب الأقصى ، فخلع طاعة خليفتهم ودخل فى طاعة عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس [٢] ، الذى طمع إذ ذاك فى امتلاك المغرب الأقصى واستولى على مدينة سبتة وأرغم موسى على

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٩٧

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٤ ص ٣٩ – ٤٠

إقامة الخطبة له على منابر بلاده. ولما علم عبيد الله المهدى بذلك عهد لولى عهده أبى القاسم سنة ٣١٥هـ بالعمل على توطيد سلطته فى هذه البلاد ؛ فسار إليها واستطاع أن يعيد للفاطميين كثيراً من نفوذهم[1] .

* * *

لم تقتصر مجهودات عبيد الله المهدى على توطيد سلطان خلافته، بل رأى أن يبنى حاضرة فى مكان يتوسط أجزاء دولته ليتخذها حصناً يعتصم به هو وأنصاره ويوجه منه هجماته إلى الخارجين عليه، ولتكون مقرا للدعوة الإسماعيلية، فخرج يرتاد موقعاً يصلح لتحقيق أغراضه، فوقع اختياره على مكان يقع على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان، حيث وضع أساس مدينة جديدة أسماها المهدية. وقد ذكر أبو عبيد البكرى[2] أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات، وأن المهدى اتخذ لهذه المدينة بابين من الحديد زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً، ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات، وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجاً عدا ما كان يجرى فيها من القنوات. وبنى المهدى بمدينة المهدية داراً للصناعة تسع أكثر من مائتى مركب. ولما فرغ من إحكام بناء حاضرة خلافته الجديدة سنة ٣٠٥هـ، قال «اليوم أمنت على الفاطميات» . يعنى بناته؛ ثم انتقل إليها سنة ٣٠٨هـ، وأنشأ فيها الدكاكين ، كما رتب أرباب المهن؛ فجعل كل طائفة فى سوق . وبعد أن تم للمهدى تأسيس هذه المدينة أمر ببناء مدينة أخرى بجوارها وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحاً وأحاطها بسور وأبواب وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل بلاد المغرب وأصدر أوامره إلى أصحاب الدكاكين بأن يقيموا فيها بحرمهم وأهاليهم.

* * *

كانت حالة بلاد المغرب بعد وفاة عبيد الله المهدى سنة ٣٢٢ هـ ، تتطلب كل جهود ابنه أبى القاسم الذى آلت إليه الخلافة ولقب القائم بأمر الله ، فقد

---

(١) كتاب : عبيد الله المهدى، ص ١٩٨

(٢) المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص ٢٩ – ٣١ .

ثار في عهده ابن طالوت القرشي بطرابلس وزعم أنه ابن المهدى. ولما ظهر للبربر كذبه قتلوه، كما اشتد خطر الثورة التى أضرم نارها أبو يزيد مخلد بن كيداد وهو من قبيلة زناتة التى خرجت على عبيد الله المهدى وانحاز زعيمها محمد بن خزر إلى عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس. وكانت هذه القبيلة ناقمة على الفاطميين لإيثارهم الكتاميين بالمناصب، لذلك عمدوا إلى مناهضتهم في بلاد المغرب الأوسط، واستفحل سلطانهم بهذه البلاد .

وقد تجلى حقد زناتة على الفاطميين ورغبتهم في القضاء على خلافتهم ببلاد المغرب في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذى نشأ في بلد توزر[١] وتعلم القرآن وخالط جماعة من الخوارج الصفرية[٢] . فمال إلى مذهبهم واعتنقه[٣] وكان الخوارج قد التمسوا الأمان في بلاد المغرب بعد أن اشتد اضطهاد الأمويين لهم، فوجدوا أهالي هذه البلاد حانقين على بنى أمية وولاتهم، لذلك أصبح من اليسير على هؤلاء الخوارج ضم البربر إلى صفوفهم. كما لقيت مذاهبهم قبولا طيباً منهم[٤] .

اتخذ أبو يزيد تاهرت محلا لإقامته وصار يعلم الصبيان القرآن ومذاهب الخوارج، وقد عرف أبو يزيد بعدائه للشيعة، فصار يدعو الناس للخروج على الخليفة الفاطمي. وابتدأ نفوذه في الازدياد منذ سنة ٣١٦هـ، وذاعت دعوته بين بعض قبائل البربر، كما قويت شوكته في عهد القائم، واجتمع إليه سائر الخوارج ، وأخذ له البيعة عليهم سنة ٣٣١هـ صاحبه أبو عمار: على قتال الشيعة واستباحة الغنائم والسبى ، وعلى أنهم إن ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى[٥] .

(١) وهي ببلاد الجريد في إمارة تونس .

(٢) أتباع زياد بن الأصفر وموطنهم الإقليم الشرقي من الجزيرة . وكان الخوارج قد التمسوا الأمان في بلاد المغرب بعد أن اشتد اضطهاد الأمويين لهم .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٩ .

(٤) ابن خلدون : جـ٧ ، ص ١١ .

(٥) ابن خلدون : جـ٧ ، ص ١٣ .

كانت حركة أبى يزيد ذات طابع وطنى الغرض منها إنشاء حكومة من البربر لايشترك فيها العرب، وذلك أن البربر رأوا أنهم فتحوا بلاد الأندلس بدمائهم وسيوفهم، وبذلوا جهدهم فى تولية الفاطميين الخلافة بالقيروان دون أن ينالوا شيئا من ثمار أعمالهم، لذلك تزعم أبو يزيد ثورة هؤلاء البربر ليستعيد سلطانهم(١) .

زحف أبو يزيد فى عهد الخليفة القائم الفاطمى إلى رقادة، فانسحب منها الكتاميون، ثم تقدم إلى القيروان وبعث برسله مع وفد من أهلها إلى عبد الرحمن الناصر الأموى صاحب قرطبة ليخبروه بدخوله فى طاعته، ورغبته فى أن يمده بقوة لمحاربة الفاطميين؛ فوعدهم الناصر الأموى بإجابة طلبهم؛ وظل أبو يزيد يواصل مهاجمة المدن التى فى حوزة الخلافة الفاطمية، ففاجأ أهل المهدية بحملاته حتى اضطروا إلى النزوح عنها إلى طرابلس وصقلية ومصر(٢) .

على أن نفوذ أبى يزيد سرعان ما ضعف على أثر انضمام عدد كبير من رجاله إلى جيوش الفاطميين؛ وكان ذلك مما اضطره إلى الارتداد عن المهدية بقوة صغيرة من رجاله تاركا خلفه ما كان معه من مؤن وعتاد. ثم تقدم إلى القيروان، فأوقع بأهلها الهزيمة سنة ٣٣٤هـ(٣) .

ولما توفى الخليفة القائم فى هذه السنة، كتم ابنه وولى عهده إسماعيل الذى تلقب بالمنصور موته خوفاً من أن يطمع فيه أبو يزيد، ولم يتلقب بالخليفة، كما لم يغير السكة ولا الخطبة ولا البنود حتى فرغ من أمر أبى يزيد .

وجه المنصور الفاطمى كل عنايته للقضاء على حركة أبى يزيد؛ وسرعان ما قويت جيوشه بانضمام قبيلة صنهاجة إليها ، وأخذت قواته فى مطاردة

---

(١) O'Leary, A Short History of the Fatimid Khalifate, P.89.

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ٣ ، ص ٢٥٠ .

(٣) ابن خلدون : جـ٧ ، ص ١٤ – ١٥

أبى يزيد حتى عجز عن مقاومتها وحلت به الهزيمة؛ وانتهت فتنة هذا الخارجى بالقبض عليه ووفاته متأثراً بجراحه سنة ٣٢٦هـ(١) .

وقد كشفت ثورة أبى يزيد عن مدى استعداد البربر لتأييد كل خارجى يثور على الدولة الفاطمية، وأخذ النفوذ الفاطمى فى بلاد المغرب يتضاءل منذ قيام هذه الثورة، كما ابتدأت الحكومات المستقلة فى الظهور فى المناطق العربية من الدولة الفاطمية (٢) .

أخذ المنصور الفاطمى بعد قضائه على ثورة أبى يزيد فى تعقب الزناتيين بإفريقية و،كان يعلى بن محمد أحد أمراء زناتة قد استفحل خطره من ناحية المغرب الأوسط، وأقام الخطبة على منابرها لعبد الرحمن الناصر؛ ولم يزل سلطانه بالمغرب فى ازدياد إلى أن بعث إليه المعز لدين الله الفاطمى قائده جوهر الصقلى سنة ٣٤٧هـ، فبادر يعلى إلى لقائه والإذعان لطاعته(٣) .

ساءت حالة البلاد فى شمال إفريقية من جراء تلك الثورات التى استنفدت كثيراً من أموال الخلافة الفاطمية؛ فرأى المنصور أن يعيد تنظيم هذه البلاد ويعمل على إنعاش مواردها ليعوض ما أنفقته الدولة من الأموال. كذلك شرع المنصور فى إنشاء أسطول كبير، كما أسس سنة ٣٣٧هـ مدينة فى الموضع الذى دارت فيه الواقعة بينه وبين أبى يزيد على مقربة من القيروان وسماها المنصورية، واتخذها حاضرة له . وكان لهذه المدينة خمسة أبواب الباب القبلى والباب الشرقى، وباب زويلة، وباب كتامة، وباب الفتوح. وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب الأخير(٤) .

نقل المنصور إلى هذه المدينة أسواق القيروان، كما رحل إليها كثير من

(١) انظر : المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٣ - ١٣٥ .

(٢) O'Leary, A Short History of the Fatimid Khalifate, P.91.

(٣) ابن خلدون : جـ٧ ، ص ١٧ - ١٨ .

(٤) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ٢٥

الصناع، فازدهرت فيها الصناعة والتجارة؛ وأصبحت على جانب عظيم من التقدم والرقى، وغدت منذ ذلك الحين حاضرة الفاطميين إلى أن قدم المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢هـ، فحلت محلها مدينة القاهرة[١] .

لما توفى المنصور سنة ٣٤١هـ، آلت الخلافة إلى ابنه المعز؛ وقد أوضح سياسته فى خطبة ألقاها على رؤساء كتامة بمدينة المنصورية؛ فقال لهم[٢]: «إنه شغل بكتب ترد عليه من المشرق والمغرب، يجيب عنها بنفسه، كما بين أنه سيوجه عنايته إلى صيانة أرواح رعاياه، وتعمير بلاده وقمع الفتن والثورات حتى يسود الأمن والطمأنينة بين ربوع دولته . وختم خطبته بقوله · إنكم إذا لزمتم ما أمركم به، رجوت يقرب الله علينا أمر المشرق، كما قرب أمر المغرب بكم» .

كذلك عنى المعز بالعمل على توطيد نفوذ الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب؛ فعهد إلى جوهر الصقلى بإخضاع الأمراء الثائرين على الحكم الفاطمى فى هذه البلاد؛ فسار فى أوائل سنة ٣٤٧هـ على رأس جيش كبير يضم كثيراً من رجالات المغاربة من بينهم زيرى بن مناد الصنهاجى قاصداً تاهرت، فاستولى عليها وقضى على واليها يعلى بن محمد الزناتى الذى عرف بانحرافه عن الفاطميين، وولائه لعبد الرحمن الناصر الأموى[٣]، ثم استأنف جوهر السير إلى فاس؛ ولما امتنعت عليه اتجه إلى سجلماسة . وكان قد استبد بحكمها رجل يقال له ابن واسول تلقب بالشاكر بالله وخاطبه الناس بأمير المؤمنين، ونقش اسمه على السكة؛ فطارده جوهر حتى قبض عليه وأخذه أسيراً. واستعاد

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٥٢٦

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا، ص ١٣٧ - ١٣٨

(٣) السلاوى . الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، جـ١ ، ص ٨٦ .

الفاطميون بذلك سلطانهم على سجلماسة . وبلغ من عناية المعز بفتحها أنه ضرب بها عملة، نقش عليها اسمه(١) .

أخذ جوهر يتابع السير فى بلاد المغرب الأقصى وما زال يفتح مدنه مدينة بعد مدينة حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى؛ ولم يمتنع عليه سوى سبتة وطنجة، ثم انصرف راجعاً إلى المهدية بعد نجاحه فى إقامة الدعوة للفاطميين على جميع منابر المغرب(٢) .

على الرغم من الجهود التى بذلها كل من جوهر الصقلى، وزيرى بن مناد لتوطيد سلطان الفاطميين على بلاد المغرب، فإن الأمور لم تستقر لهم فى هذه البلاد، فقد ثار أحد زعماء زناتة على المعز سنة ٣٥٩هـ مما اضطره إلى الخروج إليه بنفسه؛ فلما وصل إلى «باغاية»(٣) ولى هذا الثائر هارباً، فبعث إليه المعز قائده زيرى بن مناد، فقبض عليه، وانتهت ثورته بدخوله فى طاعة المعز(٤) . على أن ذلك لم ينه الاضطراب الذى ساد المغرب؛ فلم يكد ينتقل المعز إلى مصر حتى ثار أهالى باغاية وتاهرت، وزناتة في تلمسان ؛ فتصدى لهم يوسف بن زيرى بن مناد وتمكن من إخماد ثوراتهم(٥) .

(١) انظر : النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ١ ص ٣١٧ - ٣٢٨ .

(٢) حسن إبراهيم وطه شرف : كتاب المعز لدين الله الفاطمى، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) باغاية ، مدينة بأقصى إفريقية وقسنطينة . انظر : ياقوت : معجم البلدان .

(٤) ابن الأثير : جـ٨ ، ص ١٧٧ - ١٩٨ .

(٥) ابن الأثير : جـ٨ ، ص ٢٠٥ .

الباب الثانى

الأحوال الداخلية فى مصر
قبل أن يستقر فيها سلطان الفاطميين

١ - التنظيمات الإدارية والمالية فى مصر إلى نهاية العهد الأخشيدى

٢ - العلاقات السياسية بين مصر والخلافة فى عهد الطولونيين والأخشيديين .

(أ) الطولونيون والخلافة .

(ب) عودة مصر إلى الخلافة العباسية .

(جـ) الأخشيديون والخلافة .

الباب الثانى

الأحوال الداخلية فى مصر

قبل أن يستقر فيها سلطان الفاطميين

١ - التنظيمات الإدارية والمالية فى مصر

إلى نهاية العهد الأخشيدى

لما استقر سلطان العرب فى مصر سنة ٢٠هـ (٦٤١م) ، أبقوا على الأنظمة القائمة بها واكتفوا بشغل بعض المناصب الرئيسية ليشرفوا بأنفسهم على الإدارة فكان الخليفة يعين فى مصر والياً يمثله، يعرف بأمير مصر .

وكان الوالى يؤم المسلمين فى صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائباً عن الخليفة، ويعهد إليه فى بعض الأحيان جباية الخراج، وأحياناً يعين الخليفة عاملاً مستقلاً عن الوالى للقيام بهذا العمل يعرف بعامل الخراج[١] . كذلك كان من مهام والى مصر الإشراف على شئون الحامية المقيمة بها و قيادة الجيوش لصد غارات الأعداء عنها، ولتأمين حدودها، فقاد عمرو بن العاص الحملات لفتح برقة وطرابلس، كما خرج عبد الله بن سعد بن أبى سرح أثناء ولايته على مصر، على رأس الحملات التى سارت لغزو إفريقية والنوبة[٢] .

كان الخلفاء الراشدون والأمويون يسندون ولاية مصر إلى ولاة من العرب. وقد تمتع هؤلاء الولاة فى عهد الأمويين بشئ من الاستقلال،

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ١ ، ص ٣٦٢ .

(٢) انظر : الكندى : كتاب «الولاة والقضاة» ص ٢٣ .

فكانوا لايرجعون للخليفة إلا فى الأمور الهامة ؛ فولى معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص صلاة مصر وخراجها وجعلها طعمة له بعد النفقة على إدارتها وتوزيع العطاء على جندها، وظل مسلمة بن مخلد والياً على مصر خمس عشرة سنة (٤٧ - ٦٢هـ) ، كما طالت ولاية عبد العزيز بن مروان ، فاستمر بها إحدى وعشرين سنة (٦٥ - ٨٦ هـ) . وكان شبه أمير مستقل فى حكم البلاد المصرية .

ولما جاءت الدولة العباسية، تأثرت ولاية مصر بالسياسة العامة لهذه الدولة ذلك أن العباسيين لم يتعصبوا للعرب، بل اعتمدوا على عناصر غير عربية. وكان عنبسة بن إسحق آخر وال عربى على مصر، فقد أسندت إليه ولايتها سنة ٢٣٨هـ، غير أنه لم يلبث أن عزل سنة ٢٤٢هـ وخلفه ولاة من الأتراك[1] .

ظل العرب أصحاب النفوذ فى مصر إلى أن ولى الخليفة المعتصم الخلافة (٢١٨ - ٢٢٧هـ)، فحرمهم من المرتبات المقررة لهم فى ديوان العطاء وأحل محلهم الأتراك؛ ويرجع السبب فى استعانته بهم إلى ما اتصفوا به من شدة البأس وحب القتال ، هذا إلى ضعف ثقته بالفرس[2] .

على أن مصر لم تستفد من وراء السياسة التى اتبعها الخلفاء العباسيون فى إحلال الأتراك محل الولاة من العرب ، لأن هذه البلاد صارت تمنح لهم بصفة إقطاع على أن يؤدوا خراجاً معيناً ، كما أن الولاة من الأتراك من ناحية أخرى صاروا يؤثرون البقاء فى بغداد أو سامرا ، وينيبون عنهم حكاماً يديرون شئون الولايات باسمهم ، ويدعون لهم بعد الخليفة فى خطبة الجمعة ويرسلون إليهم الخراج. وكان من أثر هذه السياسة أن عمد

(١) المقريزى : خطط جـ٢ ، ص ٢٤٩ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٢ ص ٣٠٨ .

(٢) انظر : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق للمؤلف ، ص ٢٢

بعض النواب والولاة إلى الاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية بعد أن تطرق الضعف إليها[١]، فحاول أحمد بن طولون الذى قدم إلى مصر سنة ٢٤٥هـ نائباً عن واليها التركى باكباك توطيد سلطته فى هذه الولاية وما لبث أن نجح فى تأسيس دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الطولونية، ظلت نحو ثمانية وثلاثين عاماً (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) .

ولم يكن فى مصر وزراء في عصر الولاة، بل اكتفى الخلفاء بإرسال ولاة إلي هذه البلاد يديرونها باسمهم، فلما استقل أحمد بن طولون بولاية مصر، اتخذ أحمد بن محمد الواسطى كاتباً له، وكان يقوم بأعباء الوزارة دون أن يلقب بلقب وزير، وحذا أمراء الطولونيين حذوه، فاتخذوا كتابا لهم[٢]، وفى عهد محمد ابن طغج الأخشيد ولى الوزارة أبو بكر محمد بن على المادرائى. وكان هذا الوزير من كبار الموظفين فى مصر، ويرعى جانبه أمير البلاد ويخشى بأسه، وإليه يرجع الفضل فى إسناد ولاية مصر إلى أنوجور بن الأخشيد بعد وفاة محمد الأخشيد. وقد كوفئ على ذلك بأن أسند إليه الإشراف على جباية الخراج بجانب قيامه بأعمال الوزارة[٣].

كان لمحمد الأخشيد أعوان آخرون يقومون بأعمال الوزير دون أن يتلقبوا بلقبه ، ومن هؤلاء الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات الذى عاون الأخشيد فى إدارة الدولة علي الرغم من أن الخليفة العباسى ندبه للإشراف على جمع مال الخلافة من خراج مصر والشام ، ولما توفى الفضل بن جعفر ، كتب الخليفة الراضى إلى الأخشيد يأمره بإرسال ابنه جعفر بن الفضل إلى بغداد ليتقلد منصب الوزارة ، لكن الأخشيد لم يجبه إلى طلبه، فعينه الخليفة وزيراً وممثلا للخلافة فى مصر والشام ، فصار

(١) انظر : تاريخ الحضارة الإسلامية فى مصر للمؤلف . ص ٦٩ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى ، جـ٣ ، ص ٤٤١ .

(٣) انظر : المقريزى : خطط ، جـ١ ، ص ٣٢٩ .

سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ، ص ١٥٥ ، ١٥٨ .

يراقب أعمال الأخشيد ويبعث بأخباره إلى الخليفة. غير أن الأخشيد استطاع بحسن سياسته أن يقربه إليه وينتفع بخبرته. ولم يزل جعفر بن الفرات يتمتع بنفوذ كبير فى ولاية مصر حتى أيام كافور الأخشيدى[١].

وكان الطولونيون والأخشيديون يعتمدون اعتماداً كبيراً فى إدارة شئون دولتهم على البريد، فعين أحمد بن طولون أحد المقربين إليه عاملا للبريد فى سامرا التى كانت وقتذاك حاضرة الخلافة العباسية ليوافيه بما يجرى فى العراق وبما يدبره له أعداؤه من مؤامرة التى دبرها له أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة العباسى المعتمد[٢]. وكان لمحمد بن طغج الأخشيد ممثل في بغداد يأتيه بأخبار الخليفة ودواوين حكومته وما يعنيه من الأمور، ويدافع عن مصالحه[٣].

كذلك اهتم أمراء الطولونيين والأخشيديين بالشرطة، وكان صاحب الشرطة ينوب عن الوالى فى عصر الولاة في حكم البلاد ويحل محله إذا تغيب، وكثيراً ما كان الخليفة يعين صاحب الشرطة والياً على البلاد ويحل محله إذا مات الوالى أو عزل [٤]. أما فى العصر الطولونى والأخشيدى فاقتصرت مهمة صاحب الشرطة على المحافظة علي الأمن وتنفيذ أحكام القضاة.

كان بمصر ديوان خاص ، تصدر عنه الرسائل والمكاتبات ، يعرف بديوان الإنشاء . وقد أنشأه الطولونيون بعد أن اتسعت دائرة أعمالهم ، وازدهر نشاطه فى عهدهم، ولم يعمل ولاة مصر قبل العصر الطولونى على إنشائه بل اكتفوا باتخاذ بعض الكتاب لكتابة الرسائل التى يرسلونها إلى

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ٣ ، ص ٤٤١ – ٤٤٢ .

(٢) انظر : المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص ١٧٨ – ١٧٩ .

(٣) انظر : ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ٢٦ .

(٤) سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ٢٤ .

الخلفاء وغيرهم، وكان أول من تولى ديوان الإنشاء فى عهد أحمد بن طولون : أبو جعفر محمد بن أحمد بن موبود المعروف بابن عبد كان[١]. ومن الكتاب الذين ظهروا فى عهد الطولونيين جعفر بن عبد الغفار المصرى الذى اتخذه أحمد بن طولون كاتبا له. ولم يكن لدي هذا الكاتب من الكفاية بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء هذا المنصب، فأشار أحمد بن خاقان على أحمد بن طولون بعزله، فلم يجبه إلى طلبه، وقال له : أنا أحتمله لأنه مصرى، فقال ابن خاقان : أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى علي الكاتب البغدادى، قال : لا والله، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً يكون كاتبه منه[٢] .

وكان بعض الكتاب الذين أسندت إليهم وظيفة الكتابة فى العصر الأخشيدى يشتغلون بالشئون السياسية. وقد خلط الناس بينهم وبين الوزراء. أما الفريق الآخر من الكتاب، فاقتصر عمله على تحرير الرسائل، وهؤلاء كانوا يؤلفون ديوان الإنشاء[٣] .

* * *

أما عن الإدارة المالية ، فقد عنى ولاة مصر بتنمية موارد بيت المال وتنظيم مصارفه . وكانت تأتى هذه الموارد من الجزية والخراج والضرائب ، فقد فرض الولاة الجزية على الذميين ولم يعف منها إلا النساء والأطفال والشيوخ وكانت تتناسب مع ثروة الشخص ، وتدفع نقداً بالدنانير . كذلك فرض الخراج على الأرض التى يزرعها أهل مصر . وكان هناك إلى جانب ذلك

(١) محمد كامل حسين . أدبنا العربى فى عصر الولاة ص ٩٥ .

(٢) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ١٥ .

(٣) سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٦٧ .

ضرائب على الصناع والأجراء وضرائب على التجارة الداخلية وأخرى على التجارة التى تمر بالموانى والبلاد الواقعة على الحدود المصرية سواء أكانت ترد إليها أم تصدر عنها[١]؛ فيذكر المقريزى[٢] أنه كان يجئ من التجار فى الثغور المصرية وهى دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والإسكندرية ضرائب مقررة تعرف بالمكوس .

كان عهد الخلفاء الراشدين والأمويين بصفة عامة عهد عدل وتسامح، فلم يشتط ولاة مصر فى جمع الخراج إلا فى أواخر العهد الأموى. أما فى العصر العباسى، فإنا نلحظ أن أحمد بن المدبر الذى قلده الخليفة المتوكل خراج مصر، لجأ إلى الشدة فى جباية الخراج، كما أثار سخط المصريين بزيادته الضرائب واستعماله القسوة فى جبايتها مما حمل ابن طولون على العمل للتخلص منه؛ فصرف عن ولاية مصر وحل محله أحمد بن خالد .

ولما ولى أحمد بن طولون شئون مصر كلها (الإدارية والمالية والعسكرية) زاد الخراج عما كان فى أيام ابن المدبر؛ فبلغ ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار . ولم يعرف عنه أنه لجأ إلى العنف فى جبايته . غير أن الخراج ما لبث أن نقص فى عهد ابنه خمارويه لإسرافه وتبذيره فضلا عن الأموال التى كان يرسلها كل عام إلى دار الخلافة[٣] .

على أن الطولونيين لم يستمروا طويلا فى حكم مصر ، فقد زالت دولتهم سنة ٢٩٢هـ . وعادت هذه البلاد إلى حكم العباسيين؛ فالتزم

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام، ص ٥٦ – ٥٧ .

(٢) المقريزى : خطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ٣ ، ص ٤٨٧ .

المادرائيون[١] خراج مصر والشام، وصاروا يقومون بجباية الخراج فى هذين الإقليمين، ويرسلون سنوياً إلى بيت المال فى دار الخلافة- بعد النفقة على الجيش والإدارة وما تحتاجه البلاد من ضروب الإصلاح - مبالغ تختلف بحسب السنين وتتراوح بين مليون وسبعمائة ألف دينار[٢] .

أما فى عهد الأخشيديين فإن خراج مصر بلغ فى أيام محمد بن طغج مليونين من الدنانير فى السنة[٣] . ولما استأثر كافور فى مصر بذل قصارى جهده لتنمية موارد دولتهفبلغ خراج مصر فى إحدى سنى حكمه ٣,٢٧٠,٠٠٠ دينار[٤] . ومما يجدر ذكره أنه فى أواخر عهد الدولة الأخشيدية انخفض ماء النيل انخفاضاً استمر تسع سنوات (٣٥٢ - ٣٦٠هـ) ، أدى إلى اشتداد الغلاء وانتشار المجاعات والأوبئة، كما ترتب عليه اضطراب الأعمال الحكومية[٥] .

---

(١) أسرة فارسية الأصل، تنسب إلى مادرايا أو مادرايا وهى قرية من أعمال البصرة. وقد نزح بعض أفرادها إلى مصر فى عهد الطولونيين، وأسندت إليهم الوظائف الرئيسية . وكان على بن محمد المادرائى زعيم المادرائيين فى ولاية خمارويه بن أحمد بن طولون ، إذ اختاره وزيرا له ، وفى سنة ٢٧٢هـ استقدم على بن أحمد إلى مصر ولديه أبا بكر محمد وأبا الطيب أحمد . وتولى كل منهما خراج مصر بين سنتى ٣٠٤،٣٠١هـ. (سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين .ص ٣٨ ، ٣٩) ويذكر عريب بن سعد (صلة تاريخ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك جـ٨ ص ٣١ ، ١٠٥) أن أبا بكر بن محمد بن المادرائى تمتع بسلطة كبيرة فى مصر، فتقلد أعمالها فضلاً عن أعمال الشام وتدبير الجيوش منذ قدم إليها سنة ٣٠١ هـ ثم عين عاملا على خراج مصر فى جمادى الأول سنة ٣١٨ هـ .

(٢) هلال بن الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٩٠ .

(٣) المقريزى : خطط جـ١ ، ص ٩٩ .

(٤) انظر (أبو صالح الأرمنى) كنائس وأديرة مصر . ص ٣٠ ، سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين، ص ٢٤٣ .

(٥) انظر : (المقريزى) : إغاثة الأمة، ص ١٢ - ١٣ .

٢ - العلاقات السياسية بين مصر والخلافة
فى عهد الطولونيين والأخشيديين

(أ) الطولونيون والخلافة :

لما تقلد باكباك التركى ولاية مصر من قبل الخليفة المعتز ، استخلف عليها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤هـ وقصر اختصاصه على مدينة العسكر دون غيرها من البلاد . وكان ولاة مصر فى ذلك العهد يقسمون أعمال هذه الولاية بين عدة أشخاص حتى لا يتطلع أحدهم إلى الاستقلال بما فى يده[١] . ومن ذلك نرى أن أحمد بن طولون لم يكن يتمتع بنفوذ كبير فى ولاية مصر ، بل واجه عدة صعوبات فى سبيل تثبيت مركزه وخاصة منافسه أحمد بن المدبر عامل الخراج الذى أوقع به عند الخليفة العباسى . ثم توفى المعتز وخلفه المهتدى، فأسند ولاية مصر إلى يارجوخ[٢] ، صهر أحمد بن طولون، فكتب إليه «تسلم من نفسك لنفسك» واستخلفه على مصر كلها ، وبذلك زادت سلطة ابن طولون وأصبح والياً على جميع الديار المصرية ، وأتيحت له الفرصة للتخلص من ابن المدبر عامل الخراج ، فطلب صرفه من خراج مصر ، فأجيب طلبه ، وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن سنة ٢٥٧هـ . ولم يمض غير قليل حتى توفى يارجوخ صاحب إقطاع مصر سنة ٢٥٩هـ . فأصبح أحمد بن طولون والياً على مصر من قبل الخليفة العباسى مباشرة. ثم قلده الخليفة المعتمد سنة ٢٦٣ هـ خراج مصر وولاه الثغور الشامية، وبذلك صارت البلاد كلها فى قبضة يده لا ينازعه فيها أحد[٣] .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى : جـ ٣ ، ص ٢٢٠ .

(٢) أحد كبار رجال البلاط العباسى .

(٣) المقريزى : خطط ، جـ ١، ص ٣١٩ .

على أن أحمد بن طولون لم ينعم بالاستقرار فى ولايته، فقد ناصبه العداء أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة العباسى المعتمد ، ذلك أنه لما استفحل خطر ثورة الزنج(١) فى بعض بلاد العراق ، ندب الخليفة أخاه لمحاربتهم ، فلم ير الموفق بداً - بعد أن انقطعت عنه موارد الولايات الشرقية وتقاعد الأهالى عن دفع الخراج الذى كانوا يؤدونه كل عام(٢) - من الالتجاء إلى أحمد بن طولون ليمده بما يساعده على القضاء على زعيم هذه الثورة الذى يعرف بصاحب الزنج، فبعث إليه ابن طولون مليوناً ومائتى ألف دينار. غير أن الموفق استقل هذا المبلغ وبعث إليه بكتاب أظهر له فيه الجفاء. فاستاء منه ابن طولون ، وكتب إليه يقول(٣):

«.. وصل إلى كتاب الأمير - أيده الله تعالى - وفهمته وكان - أسعده الله - حقيقاً بحسن التخير لمثلى وتصييره إياى عمدته التى يعتمد عليها وسيفه الذى يصوله ، وسنانه الذى يتقى الأعداء بحده ... واحتملت الكلف العظام والمؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة واستدعاء كل منعوت بغنى .. ومن كانت هذه سبيله فى الموالاة ومنهجه فى المناصحة فهو حرى أن يعرف له حقه.؛ فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل ما أمر به الجفاء فى المخاطبة بغير حال توجب ذلك ... وإنى لا أعرف السبب الذى يوجب الوحشة ويوقعها بينى وبين الأمير، ولا ثم معاملة توجب مشاجرة، أو تحدث منافرة لأن العمل الذى أنا بسبيله لغيره والمكاتبة فى أموره إلى من سواه، ولا أنا من قبله ، فإنه والأمير جعفر المفوض قد اقتسما الأعمال، وصار لكل واحد

(١) تزعم هذه الثورة رجل فارسى يسمى على بن محمد من أهالى الطالقان ادعى أنه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب . ويرى بعض المؤرخين أنه دعى، وأن أصله عربى من عبد قيس .

(انظر : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق للمؤلف ، ص ١٦٦)

(٢) المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص ١٧٨ .

(٣) المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص١٧٩ .

منهما قسم، انفرد به دون صاحبه ... والذى عاملنى به الأمير من محاولة صرفى مرة وإسقاط رسمى أخرى .. ناقض لشرطه مفسد لعهده، وقد التمس أوليائى وأكثروا الطلب فى إسقاط اسمه وإزالة رسمه، فآثرت الإبقاء وإن لم يؤثره، واستعملت الأناة إذ لم تستعمل معى ... والأمير أيده الله - أولى من أعاننى على ما أوثره من لزوم عهده ... وكف الأذى والمضرة وأن لايضطرنى إلى ما يعلم الله - عز وجل - كرهى له أن أجعل ما قد أعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة والعساكر المتضاعفة ... مصروفا إلى نقضها ...، والأمير يعلم .. أنه لا ناصر له إلا لفيف البصرة وأوباش عامتها . فكيف من يجد ركناً منيعاً وناصراً مطيعا، وما مثل الأمير فى أصالة رأيه يصرف مائة ألف عنان عدة له فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك ....» .

كان لهذا الكتاب أثر سيئ فى نفس الموفق، فحاول النيل من أحمد بن طولون بعزله عن مصر؛ لكنه فشل فى محاولته، فعمد إلى عزله عن ولاية الثغور فأجابه الخليفة إلى ماأراد - وهو مكره - غير أنه مالبث أن عهد إلى ابن طولون بإدارتها على أثر اضطراب الأمور فيها، ورأى ابن طولون أن الفرصة سانحة لمد نفوذه إلى بلاد الشام حين جاءته الأخبار بوفاة واليها، فسار إليها بجيشه واستطاع الاستيلاء على كثير من مدنها، ثم دعى له على منابرها (٢٦٤ - ٢٦٥هـ)، لكنه اضطر إلى العودة إلى مصر للقضاء على ثورة ابنه العباس، ثم خرج ثانية إلى الشام فى جمادى الأولى سنة ٢٦٩هـ بعد أن وصله نبأ خروج لؤلؤ والى الرقة عليه وانضمامه إلى الموفق فاستخلف على مصر ابنه خمارويه. وبينما هو فى دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسى ينبئه فيه برغبته فى المسير إليه والاحتماء به . فرحب ابن طولون بقدومه وأنفذ إليه كتابا جاء فيه[1] :

(١) ابن الداية : كتاب «سيرة أحمد بن طولون» ص ٦٨ - ٦٩ .

«قد منعنى الطعام والشراب خوفى على أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - من مكر يلحقه، .. وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان مؤلفة قلوبهم. مجتمعة آراؤهم، شديد بأسهم، وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين - أدام الله عزه بالنصر والتمكين -، الانجذاب إلى مصر، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يكن فيه ما يخافه فى كل لحظة منه عليه» . لكن الموفق مالبث أن علم بما عزم عليه الخليفة المعتمد؛ فأرسل إلى ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة يأمره برد الخليفة، فأعاده إلى سامرا[1] .

تطور الخلاف بين الموفق وابن طولون إلى عداء شديد بينهما، فأرسل ابن طولون إلى أهل مصر كتابا تضمن أن أبا أحمد الموفق طلحة نكث بيعة أخيه المعتمد وحجر عليه[2]، كما بعث إلى عامله على دمشق كتابا أمره فيه بأن يدعو القضاة والفقهاء والأشراف إلى مجلسه ويقرأ عليهم كتابه الذى أعلن فيه خلع الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وحصره إياه[3] ، وطلب منهم لعن الموفق على منابر دمشق. ولما بلغ الموفق ما قام به ابن طولون من خلعه من ولاية العهد وحذف اسمه من الخطبة ولعنه على المنابر، طلب من الخليفة المعتمد أن يأمر بلعنه على منابر ولايات الدولة العباسية، فأجابه على كره منه، وولى ابن كنداج على ما كان يليه من البلاد[4] .

كان من أثر الدعاية السيئة التى قام بها الموفق ضد ابن طولون ولعنه على المنابر أن ضعف نفوذه فى البلاد التى خضعت لسلطانه، فحلت الهزيمة

(١) الكندى : كتاب «الولاة والقضاة» ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ،

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, pp.68-69.

(٢) الكندى : كتاب «القضاة والولاة» . ص ٢٢٦ .

(٣) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، ص ٢٩٥ .

(٤) تاريخ الإسلام السياسى ، جـ٣ ، ص ٢٢٧ .

بجيشه فى مكة[١]، كما عجز عن إخضاع أهالى طرسوس لسلطته[٢]، وأخذت الهزائم تتوالى عليه، ثم أصيب بمرض أودى بحياته فى ذى القعدة سنة ٢٧٠هـ.

اجتمع الجند بعد وفاة أحمد بن طولون وولوا مكانه ابنه خمارويه ووافق الخليفة العباسى المعتمد على تعيين الوالى الجديد. غير أن سلطة الطولونيين فى ولاية مصر لم تكن موطدة فى ذلك الوقت، فأصبح لزاماً على خمارويه أن يتغلب على الصعاب التى تعترضه. وكان أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة المعتمد لايزال على سياسته فى عدائه للطولونيين، فلم يعترف بولاية خمارويه على مصر بحجة أنه لم يأخذ تفويضا شرعياً من الخليفة بهذه الولاية على حين أخذ إسحق ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة تفويضاً بحكمها من الخليفة قبل وفاة أحمد ابن طولون، ومن ثم اتفق مع ابن كنداج وحليفه محمد بن أبى الساج والى أرمينية على أن يرسلا بعض القوات إلى الشام، كما أنفذ الموفق قوة أخرى بقيادة ابنه أبى العباس .

ولما علم خمارويه بمسير هذه القوات إلى الشام ، أنفذ جيشاً إليها بقيادة كاتب أبيه أبى عبد الله أحمد بن محمد الواسطى وعززه بأسطول قوى من البحر[٣]. لكن قوات الموفق وأنصاره أوقعت الهزيمة بالواسطى وتمكنت من الاستيلاء على دمشق ، فلم ير خمارويه بداً من المسير بنفسه إلى الشام سنة ٢٧١ هـ على رأس جيش كبير واشتبك فى معركة على مقربة من الرملة مع قوات الموفق انتهت بهزيمته وعودته إلى مصر[٤] . لكن فلول جيشه سرعان ما باغتوا الجند العباسى أثناء انشغالهم فى جمع الأسلاب والغنائم

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٨ ، ص ٩١ .

(٢) الكندى : كتاب «الولاة والقضاة» ، ص ٢٩٦ ، الطبرى : جـ٨ ص ١٠٢ .

(٣) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٢١ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٥٠ .

وقضوا عليهم قضاء تاماً. وعندما وصل إلى خمارويه نبأ هذا الانتصار تجددت فى نفسه روح الأمل، فعاد إلى الشام واستولى على مدينة دمشق فى أوائل سنة ٢٧٣هـ. ثم واصل السير لمحاربة ابن كنداج والى الموصل؛ فأوقع بجيشه الهزيمة واضطره إلى التقهقر حتى سامرا [١] .

وكان من أثر هذا النصر الذى أحرزه خمارويه أن عقد الصلح بينه وبين الموفق، وأرسل إليه تفويض موقع عليه من الخليفة المعتمد وأخيه الموفق وابنه المفوض، يتضمن توليته وأبناءه من بعده حكم مصر والشام والثغور الشامية ثلاثين سنة[٢] .

على أن نفوذ خمارويه مالبث أن امتد إلى بعض بلاد الدولة العباسية، فاستولى على الرقة[٣]، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة، كما قضى على حركة ابن أبى الساج - والى أرمينية - الذى خرج عليه وحاول غزو الشام، فالتقى به على مقربة من دمشق وهزمه، ثم أخذ يطارد جيوشه حتى مدينة بلد[٤]. وهناك أقام سريراً من الذهب جلس عليه إشارة إلى انتصاره[٥] .

أما عن حالة الخلافة فى ذلك الوقت ، فإن الخليفة المعتمد كان مسلوب السلطة مع أخيه أبى أحمد الموفق طلحة . ولما توفى بايع كبار القواد ابنه أبا العباس بولاية العهد ولقبوه المعتضد ، فتحولت إليه سلطة أبيه ، وسار على سياسته فى إضعاف نفوذ الخليفة المعتمد، ولم يلبث أن خلفه

(١) المقريزى : خطط ، جـ١ ص ٣٢١ .

(٢) الكندى : «كتاب الولاة والقضاة» ص ٢٣٥ - ٢٣٨ .

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.73..

(٣) تقع على نهر الفرات .

(٤) تقع على نهر دجلة .

(٥) انظر الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ٢٢٩ .

بعد وفاته[١]. واستطاع خمارويه أن يتقرب إليه بهداياه، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة، وجعلها لأولاده من بعده، وقدم رسول الخليفة على خمارويه يحمل إليه اثنى عشر خلعة وسيفاً وتاجاً ووشاحا[٢] .

كان من أثر سياسة حسن التفاهم بين خمارويه والخليفة المعتضد، أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التى تلقب بقطر الندى من ابن هذا الخليفة، لكنه اختارها زوجة له .

وعلى الرغم من أن هذه المصاهرة أدت إلى توثيق العلاقات بين خمارويه والخليفة العباسى، فإن ما اقترن بها من إسراف[٣] فى النفقات كان له أثر سيئ فى بيت المال فى مصر مما حمل بعض المؤرخين على القول بأن المعتضد كان يرمى من وراء زواجه بقطر الندى إلى نفاد خزانة مصر[٤] . وبذلك يضعف شأنها ويسهل على العباسيين استعادة سلطانهم عليها .

---

(١) انظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك . جـ٨ . ص ١٦٣

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٧٨ .

(٣) أسرف خمارويه فى تجهيز ابنته حتى قيل أنه لم يبق تحفة من كل لون إلا حملها معها (المقريزى : خطط ، جـ١ ، ص ٣٩١) .

وبلغت نفقات الجهاز مليون دينار، ولم يكتف خمارويه بذلك، بل أعطى ابنته مائة ألف دينار لتشترى بها من العراق ما قد تحتاج إليه مما يتعذر وجوده فى البلاد المصرية . (السيوطى حسن المحاضرة جـ٢ ص ١٤٨) .

كذلك أمر خمارويه أن يبنى لها قصر على رأس كل مرحلة تنزل بها فيما بين مصر وبغداد وأرسل معها أخاه خزرج بن أحمد بن طولون وجماعة من المختصين به، فكانت إذا وافت المرحلة وجدت قصرا به كل ما تحتاج إليه من وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كأنها فى قصر أبيها، ولم تزل على ذلك طيلة رحلتها حتى وافت بغداد فى أول محرم سنة ٢٨٢هـ (أبو المحاسن جـ٢ ص ٨٧ ، تاريخ الإسلام ، جـ٣ ص ٦٦٢) .

(٤) ذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٢ ، ص ٥٣ .

أن المعتضد أراد (بزواج قطر الندى) أن يفقر أباها خمارويه فى جهازها، وكذا وقع .

توفى خمارويه سنة ٢٨٢هـ بدمشق وتعاقب على ولاية مصر من بعده ثلاثة من آل طولون، تجلى فى عهدهم انتشار الفوضى وتنازع السلطة بين المتنافسين على الحكم من أفراد البيت الطولونى، وانتصار الجند لفريق دون فريق مما سهل على الخليفة العباسى المكتفى العمل على إعادة مصر إلى سلطان الخلافة، فعهد إلى محمد بن سليمان الكاتب باستردادها من هارون بن خمارويه فسار إليها على رأس أسطول بحرى، والتقى الأسطولان العباسى والمصرى فى تنيس[1]، فحلت الهزيمة بأسطول مصر، ووقعت تنيس ودمياط فى يد محمد بن سليمان الكاتب[2]. واضطر هارون بن خمارويه إلى الهرب فقصد العباسة[3] حيث قتله عماه شيبان وعدى ثم خلفه فى ولاية مصر أحد أعمامه وهو شيبان ابن أحمد بن طولون، غير أن الأمور لم تستقر له فثار عليه الجند ولم يعترفوا بولايته، وبعثوا إلى محمد بن سليمان الكاتب يطلبون منه المسير إلى مصر، فقدم إلى الفسطاط ودعا لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده بعد أن كان يدعى معه للأمير الطولونى[4]. ثم دخل مدينة القطائع وألقى فيها النيران، فالتهمت القصر والميدان والدور والأسواق، ولم يبق فيها إلا الجامع، وعاث جنده نهباً وفساداً فى الفسطاط، وأخرج محمد بن سليمان آل طولون وأعوانهم مكبلين فى الحديد إلى بغداد فى رجب سنة ٢٩٢هـ حتى لم يبق بمصر منهم أحد[5] . وبذلك قضى على الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر مدة ثمان وثلاثين سنة .

---

(١) كانت تقع هذه المدينة على جزيرة فى بحيرة المنزلة، ولم تزل عامرة إلى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧م) (انظر حاشية رقم ٤ ص ١٣٢ تاريخ الحضارة الإسلامية للمؤلف) .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى ، جـ٣ ، ص ٢٣٢ .

(٣) بلدة صغيرة ، تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة بلبيس ، سميت بذلك نسبة إلى العباسة بنت أحمد بن طولون (انظر : ياقوت : معجم البلدان) .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة . ص ٢٤٧ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة . جـ٢ ، ص ١١٢ - ١١٣ ، ص ١٣٧ - ١٣٩

(ب) عودة مصر إلى الخلافة العباسية :

عادت مصر إلى سلطان العباسيين بعد أن قضى محمد بن سليمان الكاتب على حكم الطولونيين فى مصر، وأسند الخليفة العباسى المكتفى ولايتها إلى عيسى بن محمد النوشرى فقدم إليها فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٢ هـ وفى أيامه ثار محمد بن على الخلنجى[1] - أحد قواد الطولونيين - وكان من بين الذين خرجوا من مصر مع محمد بن سليمان الكاتب، ثم انصرف عنه بعد وصوله إلى حلب والتف حوله فريق من الجند الذين كانوا فى خدمة الطولونيين وبايعوه. واتفقت كلمتهم على إحياء الدولة الطولونية، ومضى الجميع فى سيرهم إلى مدينة الرملة ، فهزموا واليها وأمر ابن الخلنجى بإقامة الدعوة على منابرهم للخليفة العباسى، ومن بعده لإبراهيم بن خمارويه .

ولما علم عيسى النوشرى والى مصر بخروج ابن الخلنجى، جهز جيشا لملاقاته، فلحقت به الهزيمة عند غزة، واضطر إلى التقهقر بقواته حتى وصل الفسطاط، ثم عبر النيل إلى الجيزة، ومهد بذلك السبيل لدخول ابن الخلنجى الفسطاط بدون مقاومة فى ٢٦ ذى القعدة سنة ٢٩٢هـ، فرحب به أهالى هذه المدينة ودعى له فى الخطبة بعد الخليفة العباسى وإبراهيم بن خمارويه[2] .

وجه ابن الخلنجى اهتمامه بعد دخوله الفسطاط إلى ضبط الأمور فى البلاد والقضاء على الفوضى، كما عنى بدفع رواتب الموظفين والجند. ولم يكتف بما أحرزه من نصر فى حاضرة البلاد المصرية ، بل أنفذ قوة برية وأخرى بحرية إلى الإسكندرية، ولم يلبث أن تمكن من الاستيلاء عليها .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ص ١٤٥ - ١٤٧ .

ورد اسمه فى (المقريزى : خطط . جـ١ ، ص ٣٢٧) محمد بن الخلنج .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ١٤٨ .

(٣) سيدة كاشف : مصر فى عهد الأخشيديين . ص ٢١ - ٢٢ .

ظل ابن الخلنجى يقلق بال الخلافة العباسية ما يقرب من ثمانية شهور حتى أرسل إليه الخليفة المكتفى عدة جيوش؛ وانتهى الأمر أخيراً بهزيمته بعد أن انضم أربعة آلاف من جنده إلى الجيش الذى أرسله الخليفة بقيادة فاتك المعتضدى، واضطر ابن الخلنجى إلى العودة إلى الفسطاط، وهناك قبض عليه فى رجب سنة ٢٩٣هـ [١]، وأرسل إلى بغداد حيث عنفه الخليفة وطيف به وبأصحابه على ظهور الإبل ، ثم قتل[٢] .

آلت ولاية مصر بعد وفاة عيسى النوشرى فى أواخر شعبان سنة ٢٩٧هـ إلى أبى منصور تكين الذى عينه الخليفة المقتدر؛ وفى عهده شرع الفاطميون يوجهون حملاتهم إلى مصر؛ لكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها، بل حلت بهم الهزيمة واضطروا إلى العودة إلى المغرب .

وعلى الرغم من انتصار تكين على الجيش الفاطمى فإن القائد مؤنس الخادم الذى أنفذه الخليفة العباسى على رأس جيش من العراق لصد الفاطميين عن مصر عزله عن ولايتها وأمره بالرحيل عنها فى ذى الحجة سنة ٣٠٢هـ وكتب إلى الخليفة العباسى بذلك[٣] . وظل مؤنس الخادم يتولى أمور مصر حتى أسند الخليفة المقتدر ولايتها إلى ذكا الرومى فى أوائل سنة ٣٠٣هـ ؛ فوجه اهتمامه إلى وضع حد للأعمال التى قام بها أنصار الفاطميين فى مصر ؛ فقبض على كل من اتهم منهم بمراسلتهم ، كما مثل ببعضهم ، فقطع أيديهم وأرجلهم[٤]. كذلك عنى ذكا بتحصين مدينة الأسكندرية والدفاع عنها، فولى عليها ابنه مظفر، وصار يرسل إليها القواد خشية أن يعاود الفاطميون

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٣ ص ١٥٢ .

(٢) المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ٣٢٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ص ١٧٣ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٤، كتاب «الفاطميون فى مصر» ص ٨٢ .

غزوها. ولم يزل هذا الوالى يواصل جهوده فى حشد الجنود لصد الحملات الفاطمية حتى توفى فى ربيع الآخر سنة ٣٠٧هـ [١] .

أعاد الخليفة المقتدر تكين إلى ولاية مصر بعد وفاة ذكا، وأمده بقوات من العراق بقيادة مؤنس الخادم لتكون عونا له فى محاربة الفاطميين. وكان لتعاون هذه القوات مع الجيش الذى يقوده تكين أثر كبير فى إلحاق الهزيمة بالحملة الفاطمية سنة ٣٠٨ هـ[٢] .

وكانت الحالة الداخلية فى مصر وقتذاك يسودها الاضطراب ، فقد قاسى أهلها كثيراً من عبث الجنود الذين أوفدهم الخليفة العباسى لصد الفاطميين، كما ساءت الحالة المالية بسبب ما استنفده هؤلاء الجنود من نفقات؛ وفضلا عن ذلك فإن السياسة التى اتبعت فى تعيين الولاة وعزل بعضهم مراراً أدت إلى عدم استقرار الأمور فى البلاد؛ فعزل القائد العباسى مؤنس الخادم تكين عن ولاية مصر فى ربيع الأول سنة ٣٠٩هـ، ورغم محبة أهل مصر له وتقديرهم لأعماله، وخلفه بعض ولاة ضعاف، ثار فى أيامهم فريق من الجند، واضطرب الأمن فى البلاد ، وعجزت الحكومة المركزية فى بغداد عن إخضاع هؤلاء الثوار. واضطر الخليفة المقتدر إلى إعادة تكين واليا على مصر سنة ٣١٢ هـ[٣]، فوجه اهتمامه إلى القضاء على عوامل الاضطراب فى هذه البلاد. وقد تكللت جهوده بالنجاح؛ إذ أضعف من شوكة الجند الثائرين ثم أخرجهم من مصر وتيسر له بذلك إعادة الاستقرار والأمن إلى البلاد . وظل تكين واليا على مصر حتى توفى الخليفة المقتدر سنة ٣٢٠ هـ وخلفه أخوه القاهر بالله، فأقره على ولايته وبعث إليه بالخلع[٤] .

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٣ ص ١٩٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٣ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٣ ص ٢١١، سيدة كاشف: مصر فى عهد الأخشيديين، ص ٣٥

لم تنعم البلاد المصرية بالهدوء والاستقرار بعد وفاة تكين سنة ٣٢١هـ، بسبب النزاع والتنافس على حكمها؛ فولى ابنه محمد ولاية هذه البلاد دون أن يمنحه الخليفة تقليداً بذلك؛ ونافسه فى تدبير أمورها أبو بكر محمد بن على الماذرائى، ولم يلبث أن أرغمه على الخروج إلى الشام . وكتب ابن تكين إلى الخليفة يطلب توليته على مصر، فأجابه إلى طلبه، وعهد إلى الماذرائى بتدبير أمور البلاد المالية . غير أن الماذرائى لم يعترف بولاية ابن تكين ومنعه من دخول البلاد. وظل منصب الولاية شاغراً إلى أن ورد كتاب الخليفة العباسى القاهر بتولية محمد بن طغج فى شعبان سنة ٣٢١هـ، وكان وقتذاك فى دمشق - فصار يذكر اسمه مع الخليفة على منابر مصر نحو اثنين وثلاثين يوما[١]، ثم قلد الخليفة القاهر العباسى ولاية مصر لأحمد بن كيغلغ[٢] للمرة الثانية فى شوال سنة ٣٢١هـ[٣] .

ازدادت الحالة سوءاً فى مصر بعد عودة أحمد بن كيغلغ واليا عليها، فقد ثار الجند على أبى بكر محمد بن على الماذرائى مطالبين برواتبهم، كما قامت فتن ومعارك بين طوائف الجند، وقدم محمد بن تكين من فلسطين فى ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ، وأعلن أن الخليفة العباسى الراضى بالله ولاه مصر، فأدى ذلك إلى نشوب القتال بينه وبين كيغلغ، وانتهى الأمر بهزيمته. غير أن هذا النصر الذى أحرزه ابن كيغلغ لم يترتب عليه توطيد سلطته، فما لبث الخليفة العباسى أن قلد محمد بن طغج ولاية مصر للمرة الثانية سنة ٣٢٣هـ، لبلائه فى صد الجيش الفاطمى عن البلاد المصرية .

وكتب محمد بن طغج إلى أحمد بن كيغلغ كتابا جاء فيه[٤] :

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) ولاه الخليفة المقتدر إمرة مصر للمرة الأولى فى ربيع الآخر سنة ٣١١هـ . (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢٠٦) .

(٣) المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ٣٢٨ .

(٤) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ١٢ .

«هذا كتاب الراضى بتقليدى، فإن سلمت وإلا انصرفت بعد أن آخذ خطك وأشهد عليك بمنعك إياى، وأسير إلى حضرة السلطان» . فرأى ابن كيغلغ أن يسلم مقاليد الأمور فى مصر لابن طغج بعد أن أيقن من ضعف سلطته وعجزه عن ضبط أمورها[1] .

(جـ) الأخشيديون والخلافة :

كانت العلاقة بين الخليفة الراضى ومحمد بن طغج تنطوى فى بادئ الأمر على الصداقة والود، فقد منحه لقب أخشيد سنة ٣٢٧هـ، ثم لم تلبث أن تبدلت صلة المودة بينهما حين بلغه ازدياد نفوذ محمد بن رائق الخزرى أمير الأمراء ببغداد وأطماعه فى ولاية الشام، فكتب إلى نائبه ببغداد يطلب إليه أن يخبر الخليفة بما وصله عن موقف ابن رائق منه وطموحه إلى مد نفوذه إلى الشام[2]؛ غير أن الخليفة لم يكن وقتذاك لديه من النفوذ بحيث يستطيع أن يتخذ قراراً يلزم أحد الفريقين باتباعه. ولذلك استقر رأى محمد الأخشيد على إعداد العدة لمحاربة ابن رائق؛ فخرج على رأس جيشه فى أوائل سنة ٣٢٧هـ، ودارت بين الفريقين معركة فى العريش حلت فيها الهزيمة بابن رائق، فمضى منهزما إلى الرملة، ثم تداعيا إلى الصلح، واتفقا على أن تكون طبرية وما فى شمالها من البلاد لمحمد بن رائق[3] .

على أن ابن رائق لم يلبث أن نقض هذا الصلح ، وسار بجيشه من دمشق فى شعبان سنة ٣٢٨هـ، وقصد الرملة فى طريقه إلى مصر. فكتب إليه الأخشيد رغبة فى أن يصل معه إلى اتفاق ينهى الحرب بينهما، لكن محاولته السلمية باءت بالفشل، وعاد القتال بينهما سيرته الأولى؛ فهزم جيش الأخشيد

(١) المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ٣٢٩، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٣ ص ٢٤٤ .

(٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٢٦، كتاب «النفوذ الفاطمى فى الشام » للمؤلف ص ١٠ .

(٣) سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٨٢ – ٨٣ .

فى بداية الأمر عند العريش، ثم انسحب ابن رائق إلى دمشق، وأرسل الأخشيد جيشاً لمطاردته، لكنه لم يتمكن من التغلب عليه، وانتهى النزاع بينهما رغم ذلك بعقد الصلح، على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالى الرملة، وعلى أن يدفع الأخشيد إليه جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار[١] . ومن المحتمل أن الأخشيد اضطر إلى قبول هذا الصلح، خشية أن توجه الخلافة العباسية الحملات ضده، ورغبة فى التفرغ لمواجهة الغزو الفاطمى الذى كان يهدده من ناحية حدود مصر الغربية[٢] .

استطاع الأخشيد أن يعيد بلاد الشام إلى حوزته من غير حرب بعد وفاة ابن رائق سنة ٣٣٠هـ، وبذلك استقر حكمه فى هذه البلاد، ولم يلبث أن أصبح من القوة بحيث اضطر الخليفة المتقى إلى الاستنجاد به بعد أن ساءت علاقته بتوزون التركى، فجاءه الأخشيد وهو بالرقة[٣]، وقال له : «ياأمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك وفجورهم وغدرهم، فالله الله فى نفسك، سر معى إلى مصر، فهى لك وتؤمن على نفسك» فأبى الخليفة قبول دعوته - وكان قد سعى إلى مصالحة توزون - ورحل من الرقة قاصداً بغداد فى المحرم سنة ٣٣٣هـ. وقد سر الخليفة المتقى من إخلاص الأخشيد له، فقلده ولاية مصر وجعل له حق توريث إمارتها لابنائه من بعده مدة ثلاثين سنة، كما حصل الأخشيد على تقليد من الخليفة المستكفى فى جمادى الآخرة من هذه السنة، أقره فيه على ولاية مصر والشام . وقام الأخشيد بالدعاء له على المنابر فى أنحاءولايته[٤] .

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٩، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٣ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) انظر : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام للمؤلف ص ١١ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٣ ص ٤١٨ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢ .

ظلت العلاقة بين مصر والخلافة يسودها الوفاق؛ فأقر المطيع الذى خلف المستكفى سنة ٣٣٤هـ الأخشيد على ولايته . وكانت سلطة الأخشيد وقتذاك قد اتسعت، فاستقر له الحكم فى مصر والشام، وقلده الخليفة ولاية الحرمين[١] واليمن. فيروى ابن سعيد[٢] أن محمد بن طغج «مازالت همته تعلو وسعادته تعينه إلى أن ملك مصر والشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن» .

ولما توفى الأخشيد بدمشق فى أواخر سنة ٣٣٤هـ خلفه بعهد منه ابنه أبو القاسم أنوجور- وكان لايتجاوز الخامسة عشرة من عمره. فقام بتدبير أمره كافور الأخشيدى الذى أخذ يترقى فى بلاط الأخشيد حتى أصبح مربياً لأولاده وقائداً من قواده، ثم آلت إليه الوصاية على ابنيه أنوجور وأبى الحسن على[٣]. وقد توطدت سلطة أبى القاسم أنوجور بعد أن وصله كتاب الخليفة المطيع لله يقره فيه على ولاية مصر والشام وما كان لأبيه من الولاية[٤] . ولما استأثر معز الدولة بن بويه بالسلطة فى بغداد دون الخليفة العباسى، بعث إليه أنوجور سنة ٣٣٨هـ يطلب منه الموافقة على أن يشترك معه أخوه فى إمرة مصر ويخلفه بعد وفاته؛ فأجابه إلى طلبه[٥] .

أصبح كافور منذ ولى الوصاية على أبى القاسم أنوجور صاحب السلطان

---

(١) كان الخليفة الراضى قد أسند ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الأخشيد، وأيد ذلك أخوه المتقى من بعده، فضم إليه الحجاز، وصارت تقام له الخطبة مع الخليفة العباسى على منابر مكة والمدينة .
انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة . جـ٣ ، ص ٣٢٦ ، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف . ص١١ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ، ص ٤٤ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٢٩١ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة . جـ٣ ، ص ٢٩٨

المطلق فى إدارة الدولة الأخشيدية . وبلغ من ازدياد نفوذه أنه حدد لأبى القاسم راتباً سنوياً قدره أربعمائة ألف دينار[1]، كما لم يتح له أى فرصة لإظهار مدى كفايته للحكم، بل انفرد بتدبير أمور الدولة مع أعوانه، وصار يدعى له على المنابر منذ سنة ٣٤٠هـ[2] .

ولما توفى أبو القاسم أنوجور فى ذى القعدة سنة ٣٤٩هـ، خلفه أخوه أبو الحسن على بن الأخشيد، وأقره الخليفة المطيع على ولاية مصر والشام والحرمين. وعلى الرغم من أن الأمير الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره، فإن كافور ظل يباشر بنفسه أمور الدولة، وحال بينه وبين القيام بأى عمل يتصل بشئون الحكم، بل منعه من الاجتماع بالناس، وحدد له أربعمائة ألف دينار فى كل سنة أسوة بأخيه[3] . واستمر الحال على ذلك حتى توفى الأمير أبو الحسن على بن الأخشيد سنة ٣٥٥هـ وكان الوارث له ولد صغير فى التاسعة من عمره يدعى أحمد؛ اعترض كافور علي توليته محتجا بصغر سنه . وبقيت مصر عدة أيام بغير وال حتى ورد كتاب من الخليفة العباسى فى المحرم من هذه السنة بتقليد كافور ولاية مصر وما يليها من البلاد؛ فدعى له على المنابر. ومع ذلك فقد احتفظ كافور بلقبه «الأستاذ» ولم يلقب بالأمير[4] . يقول ابن خلكان[5] «إنه لما أشير على كافور بإقامة الدعوة لولد أبى الحسن على بن الأخشيد احتج بصغر سنه، وركب بالمطارد وأظهر خلعاً جاءته من العراق، وكتاباً بتكنيته، وركب بالخلع يوم الثلاثاء لعشر خلون من صفر سنة خمس وخمسين وثلاثمائة» .

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٢٩ .

(٢) المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٣٢٦، سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص١٢٦

(٤) المقريزى : خطط ، جـ١ ، ص ٣٣٠، جـ٢ ص ٢٧ .

(٥) وفيات الأعيان جـ١ ص ٥٤٧ .

لم يكن كافور من أفراد البيت الأخشيدى ، ومع ذلك فقد أسند إليه الخليفة العباسى ولاية مصر لأن مقاليد الأمور فى البلاد كانت بيده منذ وفاة محمد بن طغج الأخشيد. فلما توفى على بن الأخشيد، استقل بحكم مصر؛ غير أنه لم يستمر طويلا فى حكمها، فقد توفى فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ[١] واجتمع كبار القواد ورجال الدولة، وأسندوا الولاية لأبى الفوارس أحمد بن على بن الأخشيد – وكان فى الحادية عشرة من عمره – ودعى له على منابر مصر والشام والحرمين، ثم من بعده للحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشيد على اعتبار أنه سيخلفه[٢] . ولم يلبث الحسن أن قدم إلى مصر منهزماً من القرامطة؛ وظل يتولى تدبير أمورها نحو ثلاثة أشهر[٣]، أساء خلالها معاملة الأهلين؛ ثم اضطر أخيراً إلى العودة إلى الشام بعد أن تم لجوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فتح مصر فى شعبان سنة ٣٥٨هـ[٤] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ، ص ٥٤٧ .

(٢) المقريزى : خطط جـ١ ، ص ٣٣٠، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٩ .

(٣) كتاب «مصر فى عصر الأخشيديين» ص ١٠٢

(٤) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٣٠ .

الباب الثالث

السيادة الفاطمية فى مصر

١ – امتداد سلطان الفاطميين إلى مصر .

٢ – اتخاذ مصر مقراً للخلافة الفاطمية .

الباب الثالث

السيادة الفاطمية في مصر

١ - امتداد سلطان الفاطميين إلى مصر

رأى الفاطميون بعد أن امتد نفوذهم فى بلاد المغرب أن هذه البلاد لاتصلح لتكون مركزاً لدولتهم، ففضلا عن ضعف مواردها كان يسودها الاضطراب من حين لآخر . لذلك اتجهت أنظارهم إلى مصر لوفرة ثروتها وقربها من بلاد المشرق الأمر الذى يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس العباسيين .

كان عبيد الله المهدى يطمع فى أن يتخذ مصر قاعدة يوجه منها حملاته إلى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية المتداعية . لذلك وجه نشاطه على أثر تأسيس خلافته بالمغرب إلى وضع الخطط لغزو مصر، فأعد فى سنة ٣٠١هـ (٩١٣م) جيشا من المغاربة تحت إمرة ابنه وولى عهده أبى القاسم وقائده حباسة بن يوسف، واستولى هذا الجيش على برقة فى طريقه إلي مصر ؛ ثم واصل السير حتى استولى على الإسكندرية وتوغل فى الوجه البحرى ؛ وأنفذ الخليفة المقتدر العباسي مؤنسا الخادم لدفع المغيرين، واشتبك الفريقان فى معركة ببلدة مشتول على مقربة من الجيزة، وانهزم حباسة وعاد إلى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة عبيد الله المهدى علي أثر رجوعه[1].

وقد كشفت هذه الحملة - رغم ما أصابها من فشل - عن ميل كثير من المصريين إلى الدعوة الفاطمية بفضل دعاة الإسماعيلية كأبى على الداعى الذى بذل مجهوداً كبيراً فى دعوة أهالى مصر إلى الدخول فى المذهب الإسماعيلى، وقام بمصر بنفس الدور الذى قام به أبو عبد الله الشيعى فى بلاد المغرب.

---

(١) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى، ص ٥٣ .

رأى عبيد الله المهدى أن يعاود الكرة لغزو مصر؛ فأخذ فى إعداد جيش لفتحها، وأوفد ابنه أبا القاسم على رأس هذا الجيش فى أواخر سنة ٣٠٦ هـ ، فاستولى على الإسكندرية سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩م) دون عناء، ثم سار إلى الجيزة ، وأخذ الفاطميون يتوغلون فى بلاد الوجه القبلى حتى تمكنوا من الاستيلاء على الأشمونين والفيوم.

على أن الخليفة المقتدر العباسى ما لبث بعد أن بلغه نجاح الفاطميين فى الزحف على مصر أن أرسل قائده مؤنس الخادم علي رأس جيش إلى تلك البلاد ، فانتصر على الفاطميين واستولى على سفنهم وأحرقها[1] وبذلك حلت الهزيمة بالحملة الفاطمية، وكان من أهم عوامل إخفاقها أن الخطة التى وضعها المهدى لغزو مصر لم تنفذ بدقة ، ذلك أن أبا طاهر الجنابى أمير القرامطة ببلاد البحرين لم يتقدم بجيشه إلى مصر ليعاون جيش الفاطميين.

ولما اضطربت أحوال الخلافة العباسية ببغداد بعد وفاة الخليفة المقتدر وانقسم القادة الأتراك على أنفسهم؛ اتخذ عبيد الله المهدى من ذلك فرصة سانحة لمعاودة فتح مصر فاتفق مع أبى طاهر الجنابى على إثارة الاضطراب فى بلاد المشرق في الوقت الذي تزحف فيه جيوشه إلى مصر، وأرسل حملة إلى تلك البلاد سنة ٣٢١ هـ (٩٢٣ م) تحت قيادة حبشى بن أحمد المغربى: فحدثت مناوشات بين جنود الفاطميين والمصريين، ثم عقدت هدنة فى صفر سنة ٣٢٢ هـ بين الطرفين المتحاربين. غير أن هذه الهدنة لم يطل أمدها، فنشبت عدة وقائع بين المغاربة والمصريين فى بعض المدن كالجيزة وبلبيس، ثم أوقع محمد بن طغج (الأخشيد) الهزيمة بالفاطميين في جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ (٤٣٤ هـ) فاضطروا إلى العودة إلى بلاد المغرب ، وقبل ذلك بشهرين توفى الخليفة عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية وأخفى ابنه أبو القاسم موته ولم يعلنه للناس إلا بعد سنة حيث استقرت أموره في المغرب وتلقب بالقائم.

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٣ - ١٠٤

تابع أبو القاسم سياسة أبيه المهدى في غزو مصر، فأرسل إليها جيوشه في أواخر سنة ٣٢٣ هـ، فوصلت الإسكندرية فى أوائل سنة ٣٢٤ هـ، وانضم إليها بعض زعماء المصريين مما يدلنا على مدى تأثير الدعاية الفاطمية في تلك البلاد، فأنفذ إليهم الإخشيد قوة كبيرة، استطاعت أن تهزم جند الفاطميين الذين ما لبثوا أن أرغموا على العودة إلى أفريقية[1].

لم تثبط تلك الهزائم التى لحقت بالفاطميين من عزمهم على بذل جهودهم لبسط سيادتهم علي مصر فلجأ الخليفة القائم إلى المفاوضات لعله يبلغ بها ما لم تبلغه الحملات السابقة، وأنفذ إلى محمد الإخشيد رسولا ومعه كتاب يطلب فيه صداقته إيثاراً للمسالمة . وكان مما ورد فى هذا الكتاب[2] «أرجو أن تقودك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه، فقد شهد الله علي ميلى إليك وإيثارى لك ورغبتى فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى وليس يتوجه لك العذر في الخلف عن إجابتى، لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لايردون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك، يخلفون وعدك ويخفرون ذمتك ، لم يعتقد فيهم أحد حسن المكافأة ولاجميل المجازاة . وليس ينبغى لك أن تعدل عن منهج من نصحك وإيثار من آثرك، إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك. وأنا أعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق، فإنى أرضى منك المودة والأمر والطاعة حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك ..»

على أن الإخشيد رأى أن تتاح له فرصة التفكير فى الأمر، فلم يسلم رسول الخليفة الفاطمى رد هذا الكتاب، بل «احتج إليه بأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولا يجوز له أن يبوح بما فى نفسه إلى كاتب» ثم قال : «أنا أتدبر الجواب،

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ٢٥ – ٢٦ .

وأجيب عنه وسيصل مع من أثق به ، وأسلك من حسن الموالاة ما لم يكن غيرى يسلكه».

ولا شك أن الإخشيد لم تخف عليه مطامع الخليفة الفاطمى التى تنطوى على دعوته للدخول فى طاعته ، لكنه كان يحرص على بقائه تحت لواء الخلافة العباسية؛ إذ أن ضعفها يتيح له التمتع ببعض الاستقلال، وقيل أن الإخشيد فكر فى قطع صلته بالخلافة العباسية، وحذف اسم الخليفة العباسى الراضى من الخطبة وذكر اسم الخليفة القائم الفاطمى بدله حين وصل إليه أن الخليفة العباسى قلد محمد بن رائق الخزرى ولاية الشام سنة ٣٢٨هـ، لكن بعض أخصائه نصحوه بالعدول عن ذلك .

وعلى الرغم من تمسك الإخشيد بألا يكون تابعا للخليفة القائم الفاطمى فإنه سعى لتوثيق علاقته به، فبعث إليه كتابا يعرض عليه زواج ابنته من ولى عهده المنصور . وأجاب الخليفة الفاطمى على ذلك بكتاب جاء فيه[1] : «وصل كتابك، وقد قبلنا ما بذلت وهى وديعة لنا عندك، وقد منحناها من بيت مالنا قبلك مائة ألف دينار، فوصل ذلك إليها» .

لم يؤد هذا الكتاب إلى زواج ابنة الإخشيد بالمنصور بن القائم، ذلك أن الخليفة الفاطمى - على ما يفهم من كتابه - عامل الإخشيد كأحد ولاته، وأصبح يرى أن فى ذمته إتاوة أو مالا للحكومة الفاطمية، ومن ثم منح ابنته مائة ألف دينار من هذا المال. أما الإخشيد، فكان يظن أن القائم سيرسل إليه من الأموال والهدايا ما يفخر به، فلما لم تتحقق أمنيته فشل مشروع الزواج[2] .

ظل محمد الإخشيد مواليا للخلافة العباسية فى بغداد حتى توفى سنة ٣٣٤هـ (٩٤٦م) ، ثم واجهت مصر بعد وفاته عدة صعوبات، ذلك أن سيف

(١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ٢٧

(٢) سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

الدولة الحمدانى أمير حلب أغار على دمشق ثم عول على السير إلى الرملة للاستيلاء على مصر، فنهض كافور الذى كان يقوم بالوصاية على أنوجور بن الإخشيد لدفع ذلك الخطر فرد الجيش الحمدانى منهزماً إلى حلب وحال دون مسيره إلى مصر.

أما من ناحية المغرب، فإن المنصور الفاطمى الذى آلت إليه الخلافة، بعد وفاة أبيه القائم سنة ٣٣٤هـ، لم يقم بأى محاولة لغزو مصر، ويرجع سبب ذلك إلى انشغال هذا الخليفة بالعمل على ضبط الأمور فى دولته. لكن الفاطميين رغم ذلك كانوا يرقبون الأمور فى البلاد المصرية، ويأملون أن يتمكنوا من مد سلطانهم عليها.

وقد حرص كافور الذى كان وقتذاك يستأثر بالسلطة فى مصر على تحسين علاقته؛ بكل من الخليفة العباسى والخليفة الفاطمى، فكان - كما قال أبو المحاسن فى كتابه «النجوم الزاهرة[١]» - يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء.

وفى عهد ولاية كافور حاول الخليفة المعز إعادة الكرة للاستيلاء على مصر فبعث جموعاً من عساكره هاجمت الواحات المصرية؛ فأعد كافور جيشاً أجلاهم عنها. كما وجه هذا الخليفة اهتمامه إلى نشر الدعوة الفاطمية فى مصر، فقدمت رسله إلى كافور، تدعوه إلى الاعتراف بسيادته، فرحب بهم ولم يعطهم أى رد حاسم، على حين استطاع دعاة الفاطميين أن يأخذوا البيعة للمعز من رجال بلاط كافور وكبار موظفى دولته[٢].

لما توفى كافور سنة ٣٥٧هـ (٩٦٨م)، اضطربت الحالة السياسية فى مصر فوقع اختيار رجال البلاط على أبى الفوارس أحمد - حفيد الإخشيد - ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، وما لبث أن استقل الوزير جعفر بن الفضل ابن الفرات [٣] بتدبير أمور ولاية مصر وأصبحت البلاد فى عهده مسرحاً

---

(١) جـ٤، ص ٦.

(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٧.

(٣) كان جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات مندوبا للخلافة فى مصر والشام.

للفوضى، فقبض على طائفة من كبار الموظفين وذوى الرأى وصادر أملاكهم، وكان من بينهم يعقوب بن كلس(١) الذى ظل معتقلا حتى شفع له الشريف أبو جعفر مسلم بن عبدالله الحسينى عند الوزير ابن الفرات فأطلق سراحه، ولم يلبث ابن كلس أن هرب إلى بلاد المغرب حيث التقى بالخليفة المعز ودله على وجوه ضعف مصر، كما حثه على النهوض لغزوها.

على أن ابن الفرات لم يفلح فى القضاء على عناصر الفوضى فى أواخر عهد الإخشيديين. بل ساءت فى أيامه الحالة المالية، وحل بالبلاد الوباء والقحط من جراء انخفاض النيل، وفقدت الحكومة كل هيبة واستقرار، وعلى الأخص حين عجزت عن دفع رواتب الجند وجمع الضرائب مما حمل كثيراً من أولى الرأى فى مصر على الكتابة إلى المعز لدين الله يطلبون إليه القدوم إلى مصر لإنقاذها من الفوضى التى انتشرت فيها منذ أن توفى كافور(٢).

وكان الخليفة المعز يعد العدة لفتح مصر قبيل وفاة كافور؛ ففى سنة ٣٥٦هـ (٩٦٧م) أمر بإنشاء الطرق وحفر الآبار فى طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة، ولما وصلته الأخبار بوفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ أخذ فى إعداد المال اللازم لتجهيز حملة لفتح مصر ، كما بعث إلى دعاته بالبلاد المصرية أعلاماً وأمرهم أن يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما اقتربت عساكره من مصر(٣).

عهد المعز لدين الله إلى جوهر الصقلى بقيادة الحملة التى أعدها لفتح مصر وخرج لوداعه يوم رحيله من القيروان فى الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨ هـ فسار جوهر على رأس جيشه حتى وصل برقة فقدم له

(١) كان يعقوب بن كلس يهوديا، نشأ ببغداد، ثم سافر مع أبيه إلى الشام، ورحل منها إلى مصر حيث اتصل بكافور، فأعجب بذكائه وعينه فى ديوانه الخاص، ولما أظهر إسلامه فى شعبان سنة ٣٥٦هـ، زادت حظوته عند كافور (ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص ٤٦١).

(٢) سيدة كاشف: مصر فى عصر الأخشيديين، ص ٣٦٥.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٤٧.

صاحبها فروض الطاعة واحتفل بلقائه، ثم مضى فى سيره قاصداً الإسكندرية فدخلها من غير مقاومة ومنع جنده من التعرض للأهلين واستطاع أن يتألف عساكره بما أغدقه عليهم من الأرزاق.

ولما وردت إلى الفسطاط أخبار وصول جوهر إلى الإسكندرية واستيلائه عليها، شاور الوزير جعفر بن الفرات ذوى الرأى والنفوذ من أهلها، فاستقر رأيهم على مفاوضة جوهر فى شروط التسليم وطلب الأمان على أرواح المصريين وأملاكهم، واتفقوا على تأليف وفد للمفاوضة وكان على رأسه الشريف أبو جعفر مسلم الحسينى والقاضى أبو طاهر الذهلى، فالتقى الوفد بالقائد الفاطمى عند تروجه[1] فى ١٨ رجب ٣٥٨هـ، وتصدى أبو جعفر مسلم لمفاوضته، وانتهت المفاوضة بكتاب الأمان[2] الذى كتبه جوهر وأعلنه للمصريين. وقد بين جوهر فى هذا الكتاب الذى التمسه وفد أهالى الفسطاط، أن جيوش الفاطميين إنما قدمت لحمايتهم، كما عرض لبرنامج الإصلاح الذى سيقوم به كإقامة شعائر الحج وإصلاح الطرقات، والعمل على استتباب الأمن وتوفير الأقوات وإصلاح العملة، ونشر العدل، كما وعد بترميم المساجد وتأثيثها، وأن تدفع للمؤذنين فيها والأئمة رواتبهم من بيت المال. كذلك نص فى كتاب الأمان على أن يظل المصريون على مذهبهم، أى لا يلزمون بالتحول إلى المذهب الشيعى وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره والزكاة والحج والجهاد على ما ورد فى كتاب اللّه وسنة رسوله، وتعهد جوهر فى كتاب الأمان بتأمين المصريين على أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وضياعهم.

على أن أهل الفسطاط لم يقبلوا هذا الأمان، كما تبين فى الوقت نفسه أن طائفة كبيرة من الجند غير راضية عن عقد الصلح، وقالوا : «ما بيننا وبين

(١) تروجة: إحدى قرى مركز أبى المطامير بمحافظة البحيرة.

(٢) انظر: المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٤٨ – ١٥٣.

جـوهر إلا السـيف»، وولوا قـائداً من بينهم يسـمى «نحـرير» الإمـارة، وعلم بذلك جوهر، فقدم بجيشه إلى الجيزة واستطاعت فرقة من جنده عبور النيل عند منية شلقان (شرقى القناطر الخيرية)، ودار القتال بينها وبين الجند المصريين، فقتل منهم عدد كبير، ثم استقر رأى المصريين على مطالبة الشريف أبى جعفر مسلم الحسينى بالكتابة إلى جوهر فى إعادة الأمان، فكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد، فأجاب القائد الفاطمى دعوة الشريف وأعاد الأمان. وأذاع على الجند منشوراً يحرم فيه عليهم أن يقوموا بعمل من أعمال السلب والنهب، ثم خرج أبو جعفر مسلم وجعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء ووجوه التجار والأعيان إلى الجيزة لاستقبال جوهر. وهدأت الحالة فى الفسطاط وعادت الأعمال التجارية إلى ما كانت عليه[١]. وهكذا بدأ حكم الفاطميين فى مصر وزال عهد الدولة الإخشيدية.

تأسيس مدينة القاهرة والجامع الأزهر:

رأى جوهر بعد أن تيسر له ضم مصر إلى حوزة الفاطميين أن يشرع فى إنشاء مدينة جديدة تكون مقراً للخلافة الفاطمية ومركزاً لنشر دعوتها الدينية، وعدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر عاصمة له.

ووضع جوهر أساس المدينة التى عزم على إنشائها شمالى الفسطاط فى ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ، كما وضع فى الليلة التالية أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز. وعرف هذا القصر باسم القصر الشرقى الكبير، ثم أقام حول تلك المدينة وقصر الخليفة سوراً كبيراً.

أطلق جوهر على مدينته الجديدة اسم المنصورية تقرباً إلى خليفته المعز بإحياء ذكرى والده المنصور، وظلت تعرف بذلك حتى قدم المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر بعد أربع سنوات فسماها القاهرة[٢] تفاؤلا بأنها ستقهر الدولة

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٥٨

العباسية المنافسة. وقيل أيضاً أنها سميت القاهرة لأنها تقهر من شذ منها وحاول الخروج على أميرها[1]، كما روى أن اسم القاهرة مأخوذ من قول المعز – وهو يودع جوهر أمام جمع من مشايخ كتامة الذين وجههم معه – «والله لو خرج جوهر هذا وحده، لفتح مصر... ولينزلن فى خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تسمى القاهرة، تقهر الدنيا[2]».

أنشأ جوهر بسور القاهرة[3]، أربعة أبواب وهى: باب النصر، وباب الفتوح، وبابا زويلة[4]، ويعرف أحد هذين البابين الأخيرين باسم باب القوس. وقد مر منه المعز عند قدومه إلى القاهرة، وصار الناس يتبركون بالمرور به، أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه[5].

وكانت القاهرة وقت إنشائها تحد من الشمال بموقع باب النصر، ومن الجنوب بموقع باب زويلة ومايليه، وتحد شرقاً بموقع باب البرقية وباب المحروق المشرفين على المقطم، وتعرف هذه المنطقة فى أيامنا بالدراسة، وتحد غرباً بباب سعادة وماليه حتى شاطئ النيل.

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٥٢٨ – ٥٢٩.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٦٢.

(٣) لما تقلد أمير الجيوش بدر الجمالى منصب الوزارة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى أعاد بناء السور المحيط بالقاهرة المعزية، واستخدم الحجارة فى تجديده سنة ٤٨٠هـ، كما بنى باب الفتوح أيضاً فى هذه السنة فى مكان آخر غير الذى بنى فيه جوهر بابه. وتفيدنا النقوش التى عثر عليها أخيرا بسور القاهرة أن هذا الباب كان يعرف باسم باب الإقبال. كذلك نقل بدر الجمالى باب النصر الذى بناه جوهر إلى المكان الذى يوجد به الآن، وبنى فى سنة ٤٨٤هـ باب زويلة الكبير. وقد استعان بدر الجمالى فى تجديد بناء هذه الأبواب بثلاثة إخوة من مدينة الرها، بنى كل منهم بابا (انظر: المقريزى: خطط جـ١، ص ٣٨٠ – ٣٨١).

Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, P.152.

(٤) عرفا بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة زويلة إحدى قبائل البربر التى جاءت مع جوهر من بلاد المغرب (القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥٢).

(٥) انظر: المقريزى: خطط، جـ١ ص ٣٦١، ٣٦٢، ٣٨٠.

كان بمصر قبل الفتح الفاطمى ثلاثة مساجد جامعة، هى: جامع عمرو بن العاص الذى أسس سنة ٢١هـ، وسمى فى عهد ازدهاره تاج الجوامع، ثم عرف بعد أن تقادم به العهد بالجامع العتيق، ويقع شمالى حصن بابليون الذى كانت تقيم فيه حامية الروم وقت الفتح الإسلامى. ولما أصبحت مصر تابعة للخلافة العباسية، بنى واليها الفضل بن صالح سنة ١٦٩هـ مسجد العسكر بجوار دار الإمارة، ثم بنى أحمد بن طولون بعد أن استقل بولاية مصر سنة ٢٦٣هـ مسجده المعروف باسمه على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية، والجهة الشمالية من العسكر.

وكانت هذه المساجد الجامعة الثلاثة تعتبر رمزاً لسيادة الإسلام الروحية ومنبراً للدين الجديد، فجامع عمرو بن العاص كان يمثل ظهور الإسلام فى مصر وانضواء تلك البلاد تحت الحكم العربى، أما جامع العسكر فإن تأسيسه إلى جانب جامع عمرو بن العاص أكبر دليل على نجاح الدعوة العباسية فى مصر وانضمام تلك البلاد إلى حوزة العباسيين. كذلك الحال فيما يتعلق بجامع أحمد ابن طولون. فنستطيع أن نقول أن إقامته ترجع إلى الرغبة فى إظهار الدولة الطولونية وسيادتها.

* * *

لما أسس جوهر مدينة القاهرة فى نفس الليلة التى دخل فيها مدينة مصر. رأى ألا يفاجئ السنيين فى مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمى خشية إثارة حفيظة المصريين عليه، ومن ثم عول على بناء مسجد يكون رمزاً لسيادة الدعوة الفاطمية، كما كانت القاهرة رمزاً لسيادة الفاطميين على مصر. فشرع فى بناء الجامع الأزهر فى اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩هـ (٧٩٠م)، وتم بناؤه فى سنتين تقريباً، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ[1] (٩٧٢م).

(١) المقريزى: خطط، جـ٢، ص ٢٧٣.

وقد سمى هذا الجامع فى بادئ الأمر بجامع القاهرة [1] نسبة إلى العاصمة الجديدة التى أنشأها جوهر. وهناك ما يدل على أن هذه التسمية هى التى كانت تغلب عليه طوال العصر الفاطمى، وذلك أن معظم مؤرخى هذا العصر يذكرونه دائماً باسم جامع القاهرة. أما تسميته بالجامع الأزهر، فيظهر أنها أطلقت عليه فى عصر العزيز بعد إنشاء القصور الفاطمية التى كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة. وقال آخرون إنما سمى بذلك لما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه. على أنه ليس ببعيد أن يكون الفاطميون الذين ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول ﷺ سموه الأزهر إشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء، وقد استمر هذا الجامع يعرف بهذين الاسمين حتى عصر المقريزى فى أوائل القرن التاسع الهجرى، ثم تقلص الاسم القديم وغلب عليه اسم الجامع الأزهر.

كان الجامع الأزهر وقت إنشائه يتوسط العاصمة الفاطمية الجديدة، ويشتمل على مكان مسقوف للصلاة يسمى المقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً، وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة، وأنشأ بها محراباً يسمى الآن القبلة القديمة. وكان الخلفاء الفاطميون منذ عهد المعز يحتفلون بإقامة الصلوات يوم الجمعة والأعياد فى الجامع الأزهر، وكثيراً ما كانوا يؤمون الناس فى الصلاة ويخطبون فيهم، وكانت تقام بهذا الجامع إلى جانب الصلوات بعض الحفلات الدينية.

(١) المقريزى: خطط، جـ١، ص ٣٦٢.

٢- اتخاذ مصر مقرا للخلافة الفاطمية

شرع جوهر الصقلى منذ أن وضع أساس مدينة القاهرة فى التمهيد لاتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية، فأمر بحذف الدعوة لخلفاء بنى العباس التى كانت تقام بمساجد مصر وأقامها للخليفة المعز، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى[١] بدلا من اسم الخليفة العباسى، وعلى أحد وجهيها: «دعا الإمام معد بتوحيد الإله الصمد»، وفى السطر الثانى: «المعز لدين الله أمير المؤمنين»، وفى السطر الثالث: «ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة» وعلى الوجه الآخر: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين».

كذلك منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، وزيد فى الخطبة العبارة الآتية[٢]: «اللهم صل على محمد النبى المصطفى، وعلى على المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا، اللهم صل على الأئمة الراشدين، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين»، كما أمر جوهر بأن يؤذن فى جميع المساجد بحى على خير العمل[٣]، وهى من العبارات التى يتميز بها الأذان عند الشيعيين، ولم تلبث هذه التغييرات الدينية التى أدخلها جوهر الصقلى رغبة فى نشر الدعوة الفاطمية أن لقيت كثيراً من النجاح مما سر القائد جوهر، فبعث للمعز يخبره بما لقيته دعوته من تأييد.

رأى جوهر بعد أن استقر سلطان الفاطميين فى مصر أن يكتب إلى المعز

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٦٦.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٦٩.

يستدعيه ليتولى بنفسه زمام الحكم فى البلاد، فلما أيقن المعز أن دعائم ملكه قد توطدت فى مصر عول على الرحيل إليها ، فاستخلف يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى على إفريقية والمغرب[١]، وخرج من المنصورية فى شوال سنة ٣٦١هـ متوجهاً إلى مصر وبصحبته كثير من أتباعه وجمع كبير من رجالات دولته، من بينهم أولاده وإخوته وأعمامه، كما أحضر معه رفات آبائه[٢] (عبيد الله المهدى، والقائم ، والمنصور) ، وفضلا عن ذلك فإنه كان فى ركابه خمسمائة حمل من الأموال التى أخرجها من قصور آبائه. وقد تابع المعز سيره ماراً ببرقة حتى دخل الإسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢هـ ، فاستقبله أعيان البلاد وعلى رأسهم قاضى مصر ، وجلس الخليفة عند منارة الإسكندرية حيث ألقى خطبة ، قال فيها[٣]: « إنه لم يدخل مصر طمعاً فى زيادة ملكه ولا لمال ، وإنما أراد إقامة الحق وحماية الحجاج والجهاد ضد الكفار ، وأن يختم حياته بالأعمال الصالحة وأن يعمل بما أمر به جده رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم وعظ الحاضرين وخلع على القاضى وبعض رفاقه ، ولما تم له ذلك غادر الإسكندرية قاصداً القاهرة فى أواخر شعبان من هذه السنة، فوصلها فى يوم الثلاثاء ٧ رمضان سنه ٣٦٢هـ دون أن يمر على مدينة مصر – وكان أهلها قد أقاموا معالم الزينة على جانبى الطريق ظناً منهم أنه سيزورها – وسار متجهاً إلى القصر الشرقى الذى بناه له جوهر ولم يكد يصعد إلى إحدى ردهاته حتى سجد شكراً لله تعالى وصلى ركعتين. وفى اليوم التالى لوصوله خرج أشراف مصر وقضاتها وأعيانها ورجال العلم فيها لتهنئته والاحتفاء به ، ثم أخذ جوهر بعد ذلك يقدم إليه الناس طائفة بعد أخرى[٤].

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٨ ص ٢٠٥

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٨٦

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص ١٣٤.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٧٦ – ١٨٨

لقى المعز بالقاهرة كثيراً من مظاهر الترحيب، فقدمت إليه الهدايا والتحف بعد أن استقر هو وأسرته وأتباعه بالقصر الشرقى. وقد اشتملت هدية القائد جوهر التى قدمها إلى مولاء المعز على: مائة وخمسين فرساً مسرجة، ملجمة، بعضها مذهب، وبعضها مرصع، والبعض الآخر معنبر وإحدى وثلاثين قبة على نوق بخاتى بالديباج والمناطق والفرش، وثلاث وثلاثين بغلة، وكان منها سبعة مسرجة ملجمة، تتبعها مائة وثلاثون بغلة معدة للنقل، وكانت الهدية تشتمل أيضاً على أربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أوانى الذهب والفضة، ومائة سيف محلاة بالذهب والفضة وشاشية مرصعة فى غلاف وتسعمائة آنية فيها طرائف مختلفة، انتخبها جوهر من ذخائر مصر.

كذلك قام أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسينى بتقديم هدية للمعز وهى أحد عشر سفطاً من متاع تونة[١] وتنيس[٢] ودمياط، وخيل وبغال، وقال: كنت أشتهى أن يلبس منها المعز لدين الله ثوباً أو يتعمم بالعمامة التى فيها، فما عمل لخليفة قط مثلها.

ولما انتهى المعز من تقبل الهدايا والتحف التى أهديت إليه، أمر بإطلاق سراح المعتقلين من الأخشيدية والكافورية الذين اعتقلهم جوهر، وكانوا نحو الألف[٣].

أصبحت ولاية مصر بعد قدوم المعز إليها دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين فى بلاد المغرب، كما حلت القاهرة محل المنصورية، وغدت عاصمة للدولة الفاطمية على أن انتقال المعز إلى مصر كان له أثره فى بلاد المغرب إذ ضعف نفوذ الفاطميين فى هذه البلاد واستقل بولاياتها بعض الأمراء. ولم يأت منتصف القرن الخامس الهجرى حتى تقلص منها الحكم

(١) قرية قديمة كانت على مقربة من تنيس ودمياط.

(٢) مدينة قديمة كانت تقع على جزيرة فى بحيرة المنزلة، ولها أهمية كبيرة فى تاريخ الصناعات الإسلامية. (انظر: زكى حسن: كنوز الفاطميين ص ١٥).

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٨٩.

الفاطمى، وكانت أمور ولاية مصر قد أسندها المعز إلى جوهر بعد الفتح، فأقر الوزير جعفر بن الفرات فى منصبه، كما أبقى على الموظفين المصريين فى وظائفهم وأشرك مع كل موظف مصرى موظفاً آخر من المغاربة[١]، وصار جوهر يشرف على إدارة الدواوين وجباية الخراج حتى أوائل سنة ٣٦٣هـ حيث تسلم المعز منه دواوين مصر وجباية أموالها والنظر فى أحوالها.

وهكذا استأثر المعز بالنفوذ والسلطان فى مصر، ولم يشأ أن يترك لجوهر من السلطة ما يساعده على الاستئثار بالحكم، بل أبقاه بجانبه يشير عليه بما تتطلبه أحوال البلاد ، وما لبث أن صرفه عن بعض المناصب الإدارية وأسندها إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن[٢] ، وبذلك فقد جوهر ما كان يتمتع به من نفوذ.

وليس من شك فى أن المعز كان يمثل الحاكم المستنير الذى يجمع فى يده جميع السلطات ويعمل فى نفس الوقت على إسعاد شعبه، فبذل قصارى جهده للنهوض بدولته، واستطاع بفضل الأموال الوفيرة التى أحضرها معه من بلاد المغرب، وحسن سياسته، واهتمامه بإعداد قواته الحربية أن يقيم دولة فى مصر تناهض الدولة العباسية.

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٦٨، كتاب المعز لدين الله، ص ١٦٠.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٤٥

الباب الرابع

الحركات السياسية والدينية في العصر الفاطمى الأول

١- موقف الفاطميين من أهل السنة فى مصر.

٢- سياسة الفاطميين مع أهل الذمة.

٣- الحاكم بأمر الله ودعوى ألوهيته.

٤- العناصر الأجنبية وأثر التنافس بينها فى حالة مصر الداخلية.

الباب الرابع
الحركات السياسية والدينية فى العصر الفاطمى الأول

١- موقف الفاطميين من أهل السنة فى مصر

تأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التى ظهرت فى العصر العباسى وهى: مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ)، ومذهب الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) ويتميز مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبى حنيفة ومذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعى القرشى (ت ٢٠٤هـ)، ومذهب الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

وعلى الرغم من أن مذهب الإمام أبى حنيفة أقدم المذاهب السنية إلا أن مذهب مالك هو الذى دخل مصر أولا وانتشر بها، فيذكر المقريزى[1] أن «أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبدالرحيم بن خالد يزيد بن يحيى مولى جمح. وكان فقيهاً روى عنه الليث بن سعد وابن وهب ورشيد بن سعد، وتوفى بالإسكندرية سنة ١٦٣هـ ثم نشره بمصر عبدالرحمن بن القاسم، فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر».

ولم يزل المصريون يتبعون مذهب الإمام مالك إلى أن قدم الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعى إلى مصر سنة ١٩٨هـ وأظهر بها مذهبه الجديد وجعله يلائم الحياة المصرية، فمال إليه عدد كبير وصار لكل من مذهب الإمام مالك والإمام الشافعى أتباع فى مصر، كما نبغ فيها كثير من فقهاء المالكية والشافعية.

---

(١) خطط، جـ٢، ص ٣٣٤

كان أهل السنة يكونون السواد الأعظم من المصريين المسلمين فى مستهل القرن الرابع الهجرى حيث شرع الفاطميون يوجهون حملاتهم إلى مصر. وقد استطاع دعاتهم نشر المذهب الفاطمى بين عدد قليل من المصريين كانوا خير عون لهم على فتح مصر، فدخل جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى الإسكندرية سنة ٣٥٨هـ دون مقاومة، وكتب أماناً أعلنه للمصريين.

لم يعمل الفاطميون – بعد أن انتقل الخليفة المعز إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ – بكتاب الأمان الذى التزم فيه جوهر الصقلى إطلاق الحرية للمصريين فى المعتقدات الدينية، بل تركز الاهتمام فى تحويل المصريين إلى المذهب الشيعى، واتبعت الخلافة الفاطمية لذلك عدة وسائل منها: إسناد المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعيين، واتخاذ المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية وهى وقتذاك مسجد عمرو بن العاص، ومسجد أحمد بن طولون، والجامع الأزهر، واهتمامهم بتعيين أحد كبار المتفقهين فى مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم، وكان يعرف بداعى الدعاة. وكانت منزلة هذا الداعى الكبير تلى قاضى القضاة ويتزيا بزيه[١]. وكان يعاونه اثنا عشر نقيباً ونواب فى سائر البلاد، واشترطوا فيه أن يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت وكثيراً ما تقلد رجل واحد منصبى قاضى القضاة والدعوة.

كذلك أمعن الفاطميون فى إظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالأذان بحى على خير العمل والاحتفال باليوم العاشر من المحرم وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بكربلاء؛ وعيد الغدير المعروف بغدير خم [٢] (وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة)، وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة من أن رسول الله ﷺ بعد عودته من حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة

---

(١) انظر: القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، جـ٣، ص ٤٨٣

(٢) موضع على ثلاثة أميال من الجحفة، بين مكة والمدينة به غدير وحوله شجر كثير.

نزل بغدير خم فى طريقه إلى المدينة، وأخذ بيد على بن أبى طالب وقال: ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه؟، قالوا: بلى، فقال: من كنت مولاه، فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[١]. ويعلق الشيعة أهمية كبرى على هذا الحديث، إذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول لعلى بن أبى طالب[٢].

أثار إحياء الشعائر الشيعية فى مصر استياء المصريين السنيين، لما كان يقترن بها فى كثير من الأحيان من اعتداءات الشيعيين والمغاربة عليهم، فقد حدث عند الاحتفال بعيد غدير خم (١٨ ذى الحجة سنة ٣٦٢هـ) أن قام المغاربة بإثارة الشغب والاضطرابات؛ فخرج جوهر ليحول دون تماديهم فى الاعتداء على أموال الأهالى[٣]، كذلك أصاب المصريين السنيين كثير من الضر والأذى بسبب إرغام الشيعيين لهم على مشاركتهم فى إظهار شعائرهم؛ ففى العاشر من المحرم سنة ٣٦٣هـ، سار جماعة من المصريين الشيعيين والمغاربة فى موكبهم ينوحون ويبكون على الحسين ؛ وصاروا يعتدون على كل من لم يشاركهم فى مظاهر الأسى والحزن مما أدى إلى تعطل حركة الأسواق وقيام القلاقل[٤].

رأى السنيون المصريون إزاء اهتمام الشيعيين بإظهار شعائرهم أن يتخذوا مناسبة دينية يحتفلون بها مضاهاة لعيد غدير خم عند الشيعة ونكاية لهم؛ فاحتفلوا فى سنة ٣٦٢هـ باليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم غار ثور هو وأبو بكر الصديق ، وقالوا إنه يوافق ٢٦ من ذى الحجة؛ وبالغوا فى هذا اليوم فى إظهار الزينات ونصب القباب وإيقاد النيران.

---

(١) المقريزى، خطط جـ١ ، ص ٣٨٩، أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ١ ص ١٤٩

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا (حاشية رقم، ص ١٩٥).

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٩٥.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٩٨، حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص ١٨٧.

ورأت الحكومة الفاطمية فى عهد المعز ألا تمنع أهل السنة فى مصر من إحياء هذا العيد حتى لا تثير غضبهم.

لم ينشأ التوتر بين المصريين والمغاربة الشيعيين عن إحياء الشعائر الشيعية وحدها، بل أدى انحياز الفاطميين إلى المغاربة والاعتماد عليهم فى إدارة شئون دولتهم إلى استغلال نفوذهم فى إلحاق الأذى بالمصريين فقاموا بنهب أملاكهم واغتصبوا الدور وأجلوا السكان عنها مما حمل المصريين على رفع شكاياتهم إلى المعز؛ فأصدر أوامره إلى المغاربة بإخلاء هذه الدور والانتقال إلى نواحى عين شمس[1]. وخرج بنفسه وعين المواضع التى ينزلون فيها، وأقر المال المطلوب للبناء كما جعل لهم والياً وقاضياً عهد إليهما بالنظر فى أحوالهم[2]. ولم يلبث الخليفة – بعد أن أنشئت الأحياء الخاصة بالمغاربة – أن أمرهم بالخروج من مصر والإقامة بالقاهرة[3].

لما آلت الخلافة إلى العزيز سنة ٣٦٥هـ عنى كأبيه المعز بنشر المذهب الشيعى وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب، كما قصر المناصب الهامة على الشيعيين، وأصبح لزاماً على الموظفين السنيين الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة أن يسيروا طبقاً لأحكام المذهب الإسماعيلى، وإذا ما ثبت على أحدهم التقصير فى مراعاتها عزل عن وظيفته، وكان ذلك مما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين إلى اعتناق مبادئ المذهب الفاطمى[4].

ولما قبض الحاكم بأمر الله على زمام الأمور فى مصر بعد تخلصه من وصيه برجوان سنة ٣٩٠ هـ (٩٩٩ م) عمد إلى إصدار كثير من الأوامر

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٩٧.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٤٥.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ٢٠٣.

(٤) المقريزى: خطط، جـ٢، ص ٢٨٦

والقوانين المبنية على التعصب الشديد للمذهب الفاطمى؛ فأمر فى سنة ٣٩٥هـ بنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفى الأسواق والشوارع والدروب؛ وصدرت الأوامر إلى العمال فى البلاد المصرية بمراعاة ذلك[1].

ثم خفف الحاكم من مظاهر التعصب للمذهب الفاطمى إرضاء لرعاياه السنيين؛ فأبطل سنة ٣٩٧هـ بعض ما أمر به سابقاً من لعن الخلفاء الثلاثة الأول وغيرهم من الصحابة، وأمر بمحو ما نقش فى لعنهم، كما منع المؤذنين من إضافة عبارة «حى على خير العمل» إلى الأذان، وأجاز لهم أن يقولوا فى أذان الفجر «الصلاة خير من النوم»، وسمح الحاكم بإقامة صلاة الضحى وصلاة التراويح[2] بعد أن بطلت بأمره بضع سنين، وأنشأ مدرسة لتعليم المذهب السنى، وألحق بها مكتبة، وعين أبا بكر الأنطاكى ناظراً لها ومنحه الخلع هو وأعوانه من مدرسى هذه المدرسة.

كذلك أصدر الحاكم مرسوماً سنة ٣٩٨ هـ وفق فيه بين السنيين والشيعيين، وأطلق لكل فريق منهم الحرية فى أداء شعائره الدينية ، وذلك على أثر ما حدث بينهم من خلاف على فهم بعض الأحكام وتطبيقها[3] ؛ فأجاز فى هذا المرسوم للشيعيين صوم شهر رمضان دون أن يتقيدوا برؤية الهلال وسمح للسنيين بصوم شهر رمضان إذا ثبت لديهم رؤية الهلال ، كما أباح للشيعيين أن يكبروا فى الصلاة على الميت خمس مرات ؛ أما السنيون فأجاز لهم أن يكبروا فى صلاة الجنازة أربع تكبيرات . وفضلا عن ذلك فإن الحاكم بأمر الله أطلق الحرية للمؤذنين فى ذكر عبارة حى على خير العمل فى الأذان، ونهى عن سب الصحابة.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان: جـ٢، ص ١٦٦.

(٢) المقريزى: خطط، جـ١ ص ٣٤٢

(٣) ابن خلدون: جـ٤، ص ٦٠، المقريزى، خطط، جـ٢، ص ٢٨٧.

ظلت سياسة اللين التى سار عليها الحاكم إزاء السنيين ثلاث سنوات غير أنها مالبثت أن تبدلت على حين غفلة؛ ففى سنة ٤٠١هـ، أمر بإقامة الأذان بحى على خير العمل، كما أبطل صلاة الضحى وصلاة التراويح، ثم اتجهت السياسة الفاطمية زمن الخليفتين الظاهر والمستنصر إلى عدم إثارة السنيين فتمتعوا بمطلق الحرية فى أداء شعائرهم، كما أهملت بعض المظاهر الشيعية؛ فصار المؤذنون لا يحرصون على ذكر عبارة حى على خير العمل فى الأذان حتى تقلد بدر الجمالى الوزارة فى أواخر عهد المستنصر - وكان مغالياً فى مذهب الشيعة - فأظهر روح العداء والكراهة إزاء أهل السنة سنة ٤٧٨هـ وأمر بإضافة حى على خير العمل إلى الأذان. كذلك أعاد بدر الجمالى نقش عبارات تتضمن لعن الصحابة على الجدران، وأصدر أوامره بأن يكون التكبير على الميت خمساً فقط طبقاً للمذهب الشيعى(١).

وعلى الرغم من أن الخلافة الفاطمية حرصت على نشر مذهبها الشيعى بين أهالى البلاد التى ضمت إلى حوزتها سعياً وراء توطيد سلطتها ، فإنها لم تنجح فى أداء رسالتها الشيعية فى مصر ، فظل المذهب السنى محتفظاً بقوته رغم تحول بعض المصريين إلى المذهب الفاطمى خوفا من تطبيق القوانين الجائرة التى فرضها الفاطميون على مخالفيهم فى المذهب ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الفاطميين رأوا حين دخولهم مصر واستقرارهم بها ، أن يتركوا الفسطاط حاضرة المصريين السنيين ويتخذوا لهم حاضرة جديدة تكون مقراً لأنصارهم ودعاة مذهبهم ، كما أنشأوا لهم مسجداً خاصاً ، وأجازوا لأهل السنة فى مصر إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ؛ فصارت تعاليم مذاهب الإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل تدرس فى دولتهم ، بل إنهم صاروا يراعون مذهب

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٢٠، وحسن إبراهيم. تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٢٥

الإمام مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه[1]. أما مذهب الإمام أبى حنيفة، فلم يلق تأييداً من الفاطميين لأنه مذهب العباسيين. وظهر فى العصر الفاطمى بمصر بعض علماء مذاهب أهل السنة، وكانوا يلقون دروسهم على جمهور المستمعين بجامع عمرو بن العاص.

كذلك من بين الأسباب التى جعلت أهل السنة فى مصر يحتفظون بمذاهبهم وتقاليدهم تشريعات الوراثة التى أدخلها الفاطميون، إذ رأوا فيها ما يتنافى مع ما نص عليه القرآن وما أثر عن السنة، فيجيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما تركه أبوها إذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود ذوى العصبية، وهذا يخالف مذهب السنة الذى يقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة.

(١) انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٢٠.

٢- سياسة الفاطميين مع أهل الذمة

رأى بعض خلفاء العصر الفاطمي الأول بعد أن جاءوا إلى مصر بمذهب شيعي خالفوا به جمهور المسلمين أنهم بحاجة إلى من يعاونهم في تثبيت سلطانهم. ولما أيقنوا أنه من المتعذر عليهم الاعتماد على السنيين في مصر أنصار الدعوة العباسية، قربوا إليهم أهل الذمة وأظهروا لهم كثيراً من التسامح واستخدموهم في أهم شئون الدولة، على أن هذه السياسة لم يتمسك بها الفاطميون، فكثيراً ما اضطروا إلى العدول عنها.

استعان المعز لدين الله الفاطمي بكثير من الأطباء اليهود وما لبث أن عظم نفوذهم في بلاطه، وصار يعقوب بن كلس الذي أسند إليه المعز بعض دواوين دولته يتحيز إلى إخوانه في الدين من قبل. وارتقى يعقوب في المناصب حتى أصبح وزيراً للعزيز بن المعز، وإليه يرجع الفضل في وضع قواعد الدولة ونظمها. كذلك اتسم عهد العزيز بالتسامح مع النصارى، فزاد بلاطه في إكرامهم لما كان بينه وبينهم من صلة النسب[1]، إذ تزوج من مسيحية، وكان لها أخوان رفعهما العزيز إلى أرقى مناصب الكنيسة؛ فعين أحدهما بطريركا للملكانيين ببيت المقدس سنة ٣٧٥هـ، وعين الثاني مطراناً للقاهرة، ثم رقي في عهد الحاكم بطريركا للملكانيين بالإسكندرية سنة ٣٩٠هـ[2]، وكان لهذه السيدة نفوذ عظيم على العزيز، فقد حملته على انتهاج سياسة التسامح مع المسيحيين وإعادة بعض الكنائس. وبلغ من عطف العزيز على المسيحيين أن احتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية مشاركة لهم في شعورهم.

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص ٩٠ - ٩١.

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ١٤٤ - ١٤٥.

وكان من أثر سياسة التسامح التى اتبعها العزيز نحو الذميين أن ازداد نفوذهم فى أيامه، وأصبح بدواوين الدولة كثير من كتابهم وخاصة بعد أن عين هذا الخليفة منشا بن إبراهيم القرار اليهودى والياً على بلاد الشام وولى عيسى ابن نسطورس كتابته.

استاء المصريون المسلمون من استئثار الذميين بمناصب الدولة؛ فقدموا للعزيز بالله الفاطمى الاحتجاجات على محاباته المسيحيين واليهود؛ وتبين للخليفة حقيقة استئثار الذميين بمعظم السلطات، فأمر بالقبض على عيسى بن نسطورس وزملائه من الكتاب، كما قبض على منشا وغيره من الموظفين اليهود، وأعاد الكتاب المسلمين إلى أعمالهم بالدواوين.

على أن العزيز لم يلبث أن عفا عن عيسى بن نسطورس بعد أن شفعت له ابنة الخليفة الأميرة ست الملك وزوجه المسيحية؛ وولاه الوزارة بعد أن شرط عليه أن يولى المسلمين فى الدواوين[1].

أما الخليفة الحاكم بأمر الله، فلم تكد تستقر له الأمور فى مصر حتى نبذ سياسة التسامح الدينى التى سار عليها كل من المعز والعزيز؛ إذ تقدم إليه الكتاميون وهم عصب الخلافة الفاطمية طالبين عزل ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبى محمد الحسن بن عمار، فأجاب الحاكم طلبهم وتقلد ابن عمار أمور الدولة. ثم أسند الخليفة إلى ابن نسطورس ديوان الخاص. لكنه لم يتمتع طويلا بهذا المنصب؛ فقد اتهم بالعبث بأموال الدولة، وأعطى بذلك سلاحاً لخصمه ابن عمار فقبض عليه وقتله[2].

بدأ الحاكم ينتهج سياسة الشدة مع غير المسلمين من رعاياه سنة ٣٩٢هـ. وقد حمله على اتباع هذه السياسة المصريون المسلمون الذين ساءهم استئثار أهل الذمة بالسلطة وإحرازهم الثروات الكبرى ، ثم تجلى عنفه فى معاملتهم سنة ٣٩٥ هـ ، فحتم عليهم لبس أزياء خاصة . ولم يمض على ذلك ثلاث سنوات حتى اتسع نطاق اضطهاد النصارى واليهود ؛ فأمر الحاكم بهدم

(١) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ١٨٦ – ١٨٧.

(٢) انظر: تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص ١٨٠.

بعض الكنائس في القاهرة. وفى الوقت الذى اشتد فيه اضطهاد الذميين، تقلد الوزارة منصور بن عبدون النصراني. ومن الأمور الهامة التى حدثت فى عهد هذا الوزير إشارته علي الخليفة الفاطمى الحاكم بوجوب هدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس، فأصدر مرسوماً بهدمها[١]. وكان لهدم هذه الكنيسة أثر كبير فى إذكاء الدعوة الصليبية التى أعلنتها البابوية للاستيلاء على بيت المقدس.

كذلك أمر الحاكم بمنع النصارى من الاحتفال بالنوروز علي شاطئ النيل كما حرم الألعاب التى تقام فى هذا العيد لما اقترن بها من الملاهى الباذخة وخاصة على ضفاف النيل والخليج، ولم يقف اضطهاد الحاكم للذميين عند هذا الحد بل ألغى جميع الأحباس المرصودة علي الكنائس والأديرة بأعمال مصر وضمت إلى الديوان.

أدت سياسة الحاكم التى انطوت على اضطهاد الذميين إلى دخول كثير من كتابهم فى الإسلام وتبعهم من عامة النصارى، كما هاجر بعضهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة، وأجاز لهم الحاكم هذه الهجرة. وأذن للمهاجرين منهم بحمل أموالهم.

على أن الحاكم لم يستمر على هذا الاضطهاد، فأصدر قبيل اختفائه سنة٤١١ هـ ، عدة مراسيم لإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود ، ورد ما أخذ من أوقاف الكنائس والأديرة ، وسمح للمسيحيين بتجديد الكنائس كما منحهم أماناً جاء فيه[٢] : « هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر عندما أنهوا إليه الخوف الذي لحقهم،

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص ١٩٤.

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص ٢٣٢.

والجزع الذى هالهم فأقلقـهم .. ، أنتم جميعاً بأمان الله عز وجل، وأمان نبيه خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ وعلى آله الطاهرين وأمان أمير المؤمنين علي بن أبى طالب .. وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم .. وما تحويه أيديكم، أماناً صريحاً ثابتاً وعقداً صحيحاً باقياً فثقوا به واسكنوا إليه، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحميكم وعصمته تقيكم، لا يقدم عليكم بسوء أحد...، والله عون أمين المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح وإصلاح لسكان أقطار مملكته، ومن له وسيلة الثواء فى كنف دولته... وعهده الذى يشرفه طرفكم، وكفى بالله شهيداً».

كان الخليفة الظاهر على النقيض من أبيه الحاكم فى سياسته نحو أهل الذمة، فلم يكد يتولى الخلافة حتى عمل على اكتساب عطفهم بأن أصدر بيانا[1]، أعلن فيه أنهم أحرار فى عقائدهم وشعائرهم، وأنه لا إكراه فى الدين، وأن من آثر منهم الدخول فى الإسلام، اختياراً من قلبه وهداية من ربه، فليدخل فيه مقبولا مبروراً، ومن آثر البقاء على دينه من غير ارتداد، كان عليه ذمته وحياطته.

أخذ الشعور العدائى نحو الذميين يقل ويضعف منذ ذلك الوقت ، ولم يظهر له أثر إلا فى فترات قصيرة وبخاصة حين يتقلد أحدهم منصباً كبيراً من مناصب الدولة [2]، ففى أوائل عهد المستنصر بالله الفاطمى ، ارتفع شأن أبى سعد إبراهيم بن سهل التسترى اليهودى لأن والدة ذلك الخليفة كانت من قبل أمة فى بيته، فلما ولى ابنها المستنصر الخلافة قربت التسترى وولته ديوانها مما أدى إلى حقد الوزير فخر الدولة أبى منصور صدقة بن يوسف الفلاحى

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص ٢٣٥.

(٢) حسن إبراهيم: *تاريخ الدولة الفاطمية*، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

عليه لأنه غدا مسلوب السلطة ؛ ولم يبق له من الوزارة إلا الاسم فقط، وتحيز التسترى لليهود، فتقلدوا فى أيامه كثيراً من مناصب الدولة مما جعل المسلمين فى مصر يظهرون استياءهم منه، فاستغل الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى هذه الفرصة للإيقاع به، ولم يلبث أن ترصد له بعض الجنود الأتراك وتخلصوا منه سنة٤٣٩هـ.

وعلى الرغم من تذمر المسلمين فى مصر من إسناد بعض مناصب الدولة إلى اليهود فى عهد المستنصر، فإن هذا الخليفة أظهر عطفاً وتسامحاً نحوهم، فبعد مقتل التسترى أسند إلى أخيه أبى نصر هارون ديوان خاصته، كما ثارت حفيظة أم المستنصر على صدقة بن يوسف الفلاحى لتآمره على قتل التسترى، وانتهى الأمر بإقالته من الوزارة وقتله فى أوائل سنة ٤٤٠هـ[1].

(١) ابن منجب الصيرفى: الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٧ - ٣٨، وابن ميسر تاريخ مصر، ص ٢.

٣- الحاكم بأمر الله ودعوى ألوهيته

ولى الحاكم بأمر الله الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٣٨٦هـ، وله من العمر إحدى عشرة سنة ونصف سنة، وقام بالوصاية عليه برجوان الصقلبى، وتقلد أبو محمد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين الوساطة وهى دون الوزارة فى الرتبة(١). وكان برجوان يطمح إلى الاستئثار بالسلطة ، فأخذ يؤلب زعماء الجند من الأتراك على ابن عمار، فاضطر ابن عمار إلى الهرب مع جماعة من أعوانه بعد أن تفاقم العداء بين الكتاميين والأتراك سنة ٣٨٧هـ، فحل برجوان محله(٢). واستبد بالسلطة، وعين فهد بن إبراهيم كاتباً له، وعهد إليه بالنظر فى ظلامات الناس ولقبه بالرئيس.

على أن الحاكم شعر رغم حداثته بخطورة منصب الخلافة الذى يتقلده، كما فطن إلى حرص برجوان على الاستئثار بالسلطة وخاصة عندما منعه من الاتصال المباشر برجال دولته، ولذا استدعى الحاكم الحسين بن جوهر وعهد إليه بالعمل على التخلص منه فقتله فى ربيع الثانى سنة ٣٩٠هـ(٣)، وبذلك استعاد الخليفة الحاكم سلطته، وقلد الحسين بن جوهر أمور الدولة ولقبه قائد القواد(٤).

لم يكد يقبض الحاكم على زمام الأمور فى البلاد بعد تخلصه من برجوان حتى كون مجلساً يضم كبار الموظفين لبحث شئون الحكم، كما حرص على التجول ليلا فى المدينة للوقوف على أحوال الناس ولكى يتيسر له تحقيق هذه الغاية وتوطيد الأمن، أمر بتعليق المصابيح على جميع الحوانيت والمحال المختلفة

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٩.

(٢) ابن منجب الصيرفى: الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٧.

(٣) المقريزى: خطط جـ٢ ص ٤.

(٤) المقريزى: خطط، جـ٢، ص ١٤ – ١٥

فى جميع طرقات القاهرة والفسطاط[١]، وترتب على ذلك حدوث تغيير كبير فى نظم الحياة المصرية، فصارت جميع الأعمال والمعاملات التجارية تؤدى ليلا[٢].

وكانت سياسة الحاكم تتصف فى بعض الأحيان بكثير من العنف. مثال ذلك أنه لما بلغه أن بعض العناصر استغلت إضاءة الشوارع والطرقات ليلا للعبث والمجون، فرض قوانين شديدة فمنع النساء من الخروج ليلا منذ العشاء. كما نهى الرجال عن الجلوس فى الحوانيت ثم منع الناس كافة من التجول فى الطرقات من بعد العشاء إلى مطلع الفجر، وأتبع ذلك بإصدار قوانين تحرم على الأهلين فتح محلاتهم التجارية ليلا[٣].

ولما رأى الحاكم أن أوامره السابقة لم تضع حداً للفوضى الاجتماعية التى سادت البلاد، عمد سنة ٣٩٥هـ إلى إصدار قوانين جديدة، مدفوعاً فى ذلك بدافع الشعور الدينى وإصلاح الأخلاق وتطهير نفوس المجتمع من الرذائل، فمنع النساء من الظهور سافرات ومن السير خلف الجنازات[٤]. ثم أصدر فى سنة ٤٠٢هـ، أمراً بمنع خروج النساء إلى الأسواق والحمامات، كما حظر عليهن التطلع من نوافذ البيوت والوقوف فوق أسطح المنازل، وبلغ من حرص الحاكم بأمر الله على تنفيذ أوامره أن منع صانعى الأحذية من صنع الأخفاف للنساء حتى يتعذر عليهن الخروج من بيوتهن[٥]. وكان من أثر هذه السياسة التى اتبعها الحاكم إزاء النساء أن اعتكفن فى بيوتهن.

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى، ص ٢٠٥.

(٢) Stanley Lane- Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp.125-126.

(٣) المقريزى: خطط، جـ٢ ص ١٠٨.

(٤) المقريزى: خطط جـ٢ ص ٣٤٢.

(٥) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى: ص ٢٠٨، المقريزى: خطط، جـ٢ ص ٢٨٨

كذلك حرم الحاكم الاجتماعات للهو على شواطئ الخليج المصرى بالقاهرة، فأمر بسد أبواب الدور التى على الخليج والطاقات المطلة عليه(١)، وفرض قيوداً على بعض أنواع المآكل والمشرب(٢). فمنع بيع الزبيب واستيراده حتى لا يصنع خمراً، كما منع شراء أكثر من أربعة أرطال من العنب دفعة واحدة خشية استعماله فى صنع النبيذ، ثم أمر الخليفة كذلك بإتلاف أشجار الكروم.

أما فيما يتعلق بالمأكولات. فإنه منع عجن الخبز بالأرجل، كما أمر ألا يصطاد الصيادون سمكا بغير قشر، وأنذر المخالفين بالعقاب الشديد، كذلك نهى الحاكم عن ذبح البقر إلا فى عيد الأضحى المبارك(٣) رغبة فى الإكثار من نسل الماشية. واتخذ الحاكم أيضاً بعض الإجراءات لمكافحة الغلاء فأمر سنة ٣٩٨هـ بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته، وحدد أسعار القمح والمواد الغذائية وجعل عقوبة من يخالف ذلك القتل.

وحرص الحاكم على الإشراف بنفسه على مصالح دولته، ولزم هذه الخطة طول حياته، ولكنه لجأ إلى إنزال العقوبات الصارمة بمن يعصى أوامره رغبة منه فى فرض هيبته على رعاياه وتأييد حكمه، فاذا أظهر فريق من الناس تذمراً، أسرع إلى التخلص منهم(٤). وكان لهذه السياسة أكبر الأثر فى توطيد سلطة الحاكم والقضاء على عناصر الثورة. ومع أن أوامر الحاكم كانت موجهة على الأغلب إلى أهالى القاهرة، فإن كل البلاد بوجه عام لقيت الكثير من العنت بسبب شدته وعنفه.

تعرض لقسوة الحاكم أقرب الناس إليه من الوزراء والكتاب والغلمان.

---

(١) المقريزى: خطط، جـ٢ ص ٢٢٧.

(٢) Stanley Lane- Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, p.126.

(٣) المقريزى: خطط، جـ٢، ص ٣٤١، ٣٤٢.

(٤) انظر: تاريخ بن سعيد الأنطاكى، ص ٢٢١.

وكان رجال الدولة وغيرهم من العمال والطوائف المختلفة يخشون ازدياد عقوباته القاسية، فالتمسوا منه أمانا سنة ٣٩٥هـ فأجابهم، وأصدر أمانا، جاء فيه[١]

«هذا كتاب من عبدالله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبدالله، إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين، وأبينا على خير الوصيين، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه عليهم أجمعين، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال، لا خوف عليكم، ولا تمتد يد بسوء إليكم، إلا فى حد يقام بواجبه، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك، وليعول عليه إن شاء الله تعالى...».

على الرغم من سياسة العنف التى سار عليها الحاكم بأمر الله، فإنه كان متقشفاً فى حياته العامة والخاصة، فمنع الناس من ذكر عبارة سيدنا ومولانا فى المكاتبات الواردة إليه، وحتم عليهم أن يلقبوه بأمير المؤمنين، كما أصدر أوامره بألا يقبل أحد له الأرض ولا يقبل يده عند السلام عليه فى المواكب، وكانت حجته أن ذلك من رسوم الروم.

لم يقف حب الحاكم للتواضع عند هذا الحد، بل أمر ألا يصلى عليه أحد فى الخطب الدينية والمكاتبات والمحادثات الرسمية[٢]، وكان من المعتاد أن يصلى الخطيب على الخليفة كما يصلى على النبى فى خطبة الجمعة، فاقتصر الخطباء على ما نصه: «اللهم صل على محمد المصطفى، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين ، آباء أمير المؤمنين، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك». ومنع الحاكم ضرب الطبول والأبواق حول القصر الفاطمى – وكان ذلك من مظاهر سيادة الخلفاء –

---

(١) المقريزى: خطط جـ٢ ص ٢١.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ١٦٦

ونهى عن إقامة الزينات فى طريقه إلى المصلى الذى أنشأه بجبل المقطم وعرف بمصلى العيد، وصار يدخل للصلاة فى أبسط المظاهر[١].

وعنى الحاكم عناية خاصة بتنظيم القضاء وتطهيره من الرشوة، كما وجه اهتمامه إلى مطاردة العابثين بالأمن. كذلك كان الحاكم زاهداً فى مال الدولة برغم ما تكدس لديه من الأموال والتحف. وبلغ من تعففه عن أموال الناس أنه إذا صادر أملاك أحد رجاله، أضافها إلى خزائن الدولة[٢]. ومع أن الحاكم كان يؤثر مظاهر البساطة حرصاً على مال الدولة، فإنه كثيراً ما يسرف فى العطايا والهبات مما أثار اعتراض بعض وزرائه ورجال دولته[٣].

وحذا الحاكم حذو أسلافه المعز والعزيز فى الاهتمام برصد النجوم ومعرفة ما وراءها من الأحداث، وصار يشجع الفلكيين والمنجمين ويغدق عليهم المنح والعطايا، وأخذ المنجمون يسيطرون على عقول الكثيرين من الناس حتى اضطر الحاكم سنة ٤٠٤هـ إلى إصدار مرسوم بتحريم مهنة التنجيم[٤]. لكنه مع ذلك ظل حريصاً على رصد النجوم[٥]، كما شغف بالتطلع إلى معرفة أخبار رعاياه، ولكى يوهم الناس أنه واقف على حركاتهم ، اتخذ جواسيس يطوفون بالأسواق والدور، يرفعون إليه تقاريرهم عما يقع فى نواحى حاضرته من الأحداث[٦].

وفى الوقت الذى كثر فيه شغف الحاكم بالخروج لزيارة مرصده

(١) المقريزى: خطط جـ٢ ص ٢٨٧ – ٢٨٨.

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص ٢٠٦، المقريزى خطط، جـ٢ ص ٥.

(٣) ابن منجب الصيرفى: الاشارة إلى من نال الوزارة، ص ٢٩.

(٤) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص ٢٠٠ – ٢٠٢.

(٥) المقريزى: خطط، جـ٢ ص ٢٨٩.

(٦) المكين بن العميد: تاريخ المسلمين، ص ٢٥٩.

الذى أقامه بجبل المقطم لرصد النجوم، جاء إلى مصر بعض الفرس، واختلف هؤلاء إلى مجالس الدعوة الفاطمية، وما لبثوا أن اعتنقوا المذهب الفاطمى بل تطرفوا فى الدعوة له، وخرجوا بذلك على تعاليم المعتدلين من الإسماعيلية. وكان أعظم هؤلاء الدعاة تأثيراً فى السنوات الأخيرة من عهد الحاكم: حمزة بن على الزوزنى، وحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل البخارى الدرزى.

كان حمزة بن على فى بادئ أمره عاملا يشتغل بصنع اللباد فى فارس، وقدم إلى مصر سنة ٤٠٥هـ، ثم انضم إلى الدعاة الذين كانوا يتوافدون على دار الحكمة التى أنشأها الحاكم سنة ٣٩٥هـ. وأخذ ينشر سراً الدعوة إلى تأليه الحاكم، ثم جهر بهذه الدعوة سنة ٤٠٨هـ، فاجتمع إليه طائفة من متطرفى الشيعة الإسماعيلية وأولاه الحاكم رعايته حتى إنه كثيراً ما يلتقى به فى القرافة، ويرحب به وبأنصاره أحسن ترحيب[١].

وكان حسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم من أعوان حمزة بن على وقد شجعه على الجهر بتأليه الحاكم سنة ٤٠٩هـ، واستطاع الأخرم بفضل تأييده هذه العقيدة أن يتقرب إلى الحاكم ويكتسب عطفه ورعايته. ولما أعلن حسن الأخرم بجامع عمرو بن العاص أصول دعوة ألوهية الحاكم أثار حديثه غضب السنيين فرفعوا شكواهم إلى القاضى أحمد بن محمد بن أبى العوام بالمسجد، فثار القاضى فى وجه أتباع الأخرم وتبعه فى ذلك الحاضرون، فانقضوا عليهم. ثم استقر رأيهم على التخلص من حسن الأخرم الذى تمكن من النجاة بنفسه، فظلوا يتعقبونه حتى تيسر لبعض السنيين القبض عليه وقتله[٢].

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص ٢٦٥.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ١٨٣.

لم تضعف عزيمة أنصار حسن بن حيدرة الفرغاني من متطرفى الإسماعلية بعد مقتله، فحل محله سنة ٤٠٩ هـ الداعى محمد بن إسماعيل الدرزى – وهو أقوى رسل حمزة بن على-، وكان من القائلين بألوهية الحاكم. وشرح الدرزى دعوته وأصول مذهبه فى رسالة قدمها إلى الحاكم، فقربه الحاكم إليه وأجزل له العطاء، وجعله محل رعايته وعطفه. كما ارتفعت منزلته عنده، فعهد إليه الإشراف على شئون الدولة «وبلغ منه أعلى المراتب، بحيث إن الوزراء والقواد والعلماء كانوا يقفون على بابه ولا ينقضى لهم شغل إلا على يده[1]».

أثار إعلان محمد بن إسماعيل الدرزى أصول مذهبه فى الجامع الأزهر سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعيين، فأخذوا يتعقبونه حتى علموا أنه ملتجئ بقصر الخليفة ؛ فذهبوا إلى الحاكم بأمر الله وطالبوه بتسليمه، فظل يماطلهم حتى دبر له سبيل الفرار بعد أن أمده بالأموال، وقال له : اخرج إلى الشام وانشر الدعوة فى الجبال، فإن أهلها سريعو الانقياد. وسرعان مارحل محمد بن إسماعيل الدرزى عن مصر ونزل ببعض قرى بانياس[2]، وهناك أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم، وتمكن بفضل قوة حجته أن يستميل إلى جانبه كثيراً من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية[3].

أظهر الخليفة الحاكم استياءه من أهالى الفسطاط الذين جاهروا بتذمرهم من وقوفه موقف التأييد من هؤلاء الدعاة، وعهد إلى جنوده السودانيين بالتنكيل بهم، فأضرموا النيران فى أرجاء مدينة الفسطاط. ولما اشتد عسف هؤلاء الجند بأهالى هذه المدينة، اضطر الحاكم إلى إصدار أمره

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ ٤ ص ١٨٤.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٤. بانياس : بلد صغيرة غربى دمشق.

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٣، ص ٣٦٧.

لهم بالتفرق ولزوم السكينة[١]، كما اعتذر لأشراف مصر وزعماء الأتراك والمغاربة عما وقع ، ولم يكتف بذلك ، بل أصدر أماناً لأهالى الفسطاط قرئ على المنابر[٢].

أكتنف الغموض نهاية حياة الحاكم، فقيل أنه ركب فى ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١هـ (١٠٢١ م) قاصداً جبل المقطم، وأنه لم يعرف بعد ذلك مصيره. وبينما يروى بعض المؤرخين[٣] أن أخته ست الملك دبرت وتنذاك مؤامرة لقتله لأنه اتهمها فى أخلاقها نرى فريقاً آخر من المؤرخين يبرئ ست الملك من جريمة قتل أخيها الحاكم، ومن بينهم يحيى بن سعيد الأنطاكى الذى بدأ فى كتابة تاريخه سنة ٤٠٥ هـ ، إذ تحدث عن مصرع الحاكم دون أن يذكر شيئاً عن صلة أخته بهذا الحادث، ومن ذلك الفريق أيضاً المقريزى[٤] الذى قال إن اتهام ست الملك بقتل أخيها جاءنا من كلام المشارقة وزاد على ذلك فروى لنا رواية تتلخص فى أن رجلا من إحدى بلاد الصعيد ظهرفى سنة ٤١٥هـ أى بعد اختفاء الحاكم بأربع سنوات وادعى أنه قتل الحاكم.

كان لما أظهره الحاكم فى أواخر عصره من ميل كبير إلى إحاطة نفسه بسياج من التقديس رغبة منه فى جعل رعاياه طوع إرادته أثره فى موقفه من دعاة الفرس ، إذ رأى فى الدعوة التى نشرها هؤلاء الدعاة ما يساعده على تحقيق هذه الأمنية ويجعله فى مقام المهدى الذى يعتقد الإسماعيلية بظهوره فى آخر الدنيا ليملأ الأرض عدلا وأمناً. ومن المحتمل أن يكون الحاكم هداه تفكيره إلى الاعتزال والاختفاء عن أعين الناس ليقضى حياته بعيداً

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.133.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤، ص ١٨١ - ١٨٢.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤، ص ١٨١ - ١٨٢، ١٩٠.

(٤) خطط جـ ٢، ٢٨٩.

عن الأنظار، وبذلك يعتقد أنصاره أنه سيعود فى آخر الزمان فى شخص الإمام أو المهدى.

ليس هناك ما يثبت أن الحاكم ذهب فى تصرفاته الدينية إلى حد الخروج على قواعد الإسلام على الرغم مما نوه إليه الدعاة فى رسائلهم التى أذيع أكثرها بعد اختفائه، وينكر ابن خلدون[١] ماقيل عن كفر الحاكم بقوله: «وأما ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات بإسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته».

ولم يكن ماذهب إليه الدعاة من اعتقادهم بغيبة الحاكم ورجعته جديداً بالنسبة لبعض الطوائف الشيعية، فقد بنوا آراءهم على عقيدة متطرفى الشيعة فى المهدى، وأساسها أن العلويين كانوا فى عهد الأمويين والعباسيين فئة مظلومة، مضطهدة، لذلك طمعوا فى ظهور قائد مخلص يعيد إليهم عهد الأمن والحرية والإخاء، وهذا القائد فى نظرهم هو المهدى المنتظر.

كذلك كانت الحال بالنسبة لعقيدة تأليه الحاكم، فقد استمدت من معتقدات متطرفى الشيعة، فكان بعضهم يعتقد أن علياً وخلفاءه من الأئمة ليسوا بشراً عاديين، فقالت طائفة السبئية[٢] برجعة على بن أبى طالب، كما زعمت أنه لم يمت، وأنه مستقر فى السحاب، وسينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلا بعد أن ملئت جوراً وظلما[٣] وغلا فريق من الكيسانية[٤] فى اعتقادهم بإمامة محمد بن الحنفية، وبإحاطته بالعلوم كلها، وأنكروا موته، وقالوا إنه يقيم بجبل رضوى (على مقربة من المدينة)، وأن عودته ستكون من هذا

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر : جـ ٤ ، ص ٦٠.

(٢) أنصار عبد الله بن سبأ الذى كان يرى أحقية على بن أبى طالب بالخلافة منذ أيام عثمان بن عفان.

(٣) انظر : الشهرستانى، الملل والنحل جـ ٢ ، ص ١١.

(٤) عرفت بذلك نسبة إلى كيسان رئيس حرس المختار بن أبى عبيد الثقفى، كما عرفت أيضا بالمختارية، وهى فرقة شيعية كونها المختار من أتباعه.

المكان[١]، كما كان القرامطة والإسماعيلية ببلاد الفرس يقدسون بعض أحفاد علي ويعتبرونهم حكاماً معصومين.

أعلن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بعد مضى ثلاثة أعوام على وفاة الحاكم براءته من دعوى الألوهية التى قيلت فى أبيه وأسلافه، وكان متأثراً فى ذلك برغبته الصادقة فى تطهير مصر من هذه الفتنة، ولا غرو فقد عرف هذا الخليفة بميله إلى استعمال العنف فى مطاردة الخارجين على الدين، فأصدر الأوامر بتتبعهم فى سائر البلاد، كما جاهر بإنكار ما ادعاه بعض الناس من تأليه آبائه وهدد بإيقاع الأذى الشديد على كل من تحدثه نفسه بذلك فى رسالة أذاعها على المصريين[٢].

لم يسهم المصريون فى نشر دعوة ألوهية الحاكم، بل كان أغلب القائمين بنشرها من الفرس حيث حاولت بعض الطوائف إحياء نحلها القديمة، واتخذت لها مبادئ كان من أهمها مناوأة سلطان الإسلام السياسى وإعادة مجد الدولة الفارسية مما يحملنا على الظن أن هؤلاء الدعاة الذين وفدوا على مصر وحاولوا نشر دعوة ألوهية الحاكم كانوا ينتمون إلى هذه الطوائف. وقد عمدوا من وراء دعوتهم التى قاموا بنشرها إلى إثارة الفتن والقلاقل فى القاهرة ليمهدوا بذلك للقضاء على الدولة الفاطمية، غير أن محاولتهم سرعان ما باءت بالفشل.

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ، وحسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٣١، ٣٦ ، الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية .

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص ٢٣٦.

٤- العناصر الأجنبية وأثر التنافس بينها فى حالة مصر الداخلية

لما اتخذ الفاطميون مصر مقراً لخلافتهم، ساروا على طريقة العباسيين فى الاعتماد على غير أبناء جنسهم، فصار جيشهم فى عهد المعز يتألف من قبائل كتامة وزويلة وبعض طوائف البربر، ومن الصقالبة[١]. ثم استخدم العزيز الديلم والأتراك. وظل الحال على ذلك إلى أن ولى الحاكم بأمر الله الخلافة، فقرب إليه الكتاميين فى بداية عهده، ثم انحرف عنهم واعتمد فى جيشه على الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين. وحذا حذوه ابنه الظاهر فى الاعتماد على الأتراك فضعف بذلك شأن الكتاميين ثم تلاشى أمرهم فى عهد المستنصر بالله الفاطمى الذى استكثر من الأتراك على حين استكثرت أمه من العبيد حتى بلغ عددهم خمسين ألفا . وظهر فى أيام هذا الخليفة التنافس والتشاحن بين هاتين الطائفتين مما كان له أسوأ الأثر فى حالة مصر الداخلية[٢].

(أ) المغاربة: قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر وكانوا يدينون بعقائد المذهب الفاطمى. وقد اعتمد الفاطميون على هؤلاء المغاربة وخاصة الكتاميين منهم - وهم عصب الدولة الفاطمية وقوتها فى مصر - ومن زعمائهم أبو محمد الحسن بن عمار الذى ولاه الحاكم بأمر الله الوساطة وخلع عليه سنة ٣٨٦هـ ولقب بأمين الدولة، وبلغ من نفوذه أن ألزم سائر الناس بالترجل له[٣].

استغل ابن عمار سلطته فى تحقيق مصالح وأطماع الكتاميين، فخصهم ببعض الوظائف وأنفق فيهم الأموال وأعطاهم الخيول، واعتمد على أحداث المغاربة[٤] ليقضى بذلك على نفوذ الحزب التركى الذى استحدثه العزيز.

---

(١) انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٩٠.

(٢) المقريزى : خطط ، جـ ٢ ص ١٢.

(٣) المقريزى : خطط ، جـ ٢ ص ٣٦.

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر. ص ٥٥.

وكانت نتيجة هذه السياسة ازدياد جرأة المغاربة، فعاثوا فساداً فى طرقات القاهرة ونهبوا المتاجر واشتبكوا مع الأتراك فى بعض المعارك، وتطورت هذه المعارك إلى قتال بين الفريقين، وانتهى الأمر بهزيمة المغاربة(١)، وقد ضعف نقود الكتاميين منذ ذلك الوقت حتى صاروا من جملة الرعية فى عهد المستنصر بالله الفاطمى بعد أن كانوا من أكابر رجال الدولة.

(ب) السودانيون : بدأ ظهورهم في مصر منذ أيام كافور الإخشيدى، وكانوا يجلبون من الجنوب كجنود مرتزقة، ولم يعمد كل من المعز والعزيز إلى استخدامهم في الجيش، وإنما استعان بهم الحاكم بأمر الله ضد المصريين السنيين بالفسطاط، فهاجموا أرجاء تلك المدينة واقتحموا بيوتها وحماماتها ونهبوا أسواقها (٢)، ثم ازداد خطرهم على أمن الدولة فى عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، فثاروا بتنيس سنة ٤١٥هـ مطالبين بأرزاقهم وعاثوا فى البلد وسلبوا مافى خزائنها من مال، فبعث إليهم الوزير الفاطمى نجيب الدولة على ابن أحمد الجرجرائى من قبض على الجناة، وأخضع ثورتهم(٣).

(جـ) الأتراك : ظهر أمرهم فى عهد العزيز بعد أن استكثر منهم، وقربهم إليه، وأصبحوا منذ ذلك الوقت عنصراً هاماً فى الجيش الفاطمى. وقد ثار الجند الأتراك في عهد الحاكم حين أبطل ابن عمار أعطياتهم وبالغ فى محاباةالمغاربة، كما حاصر هؤلاء الجند قصر هذا الخليفة حين بلغهم أن محمد بن إسماعيل الدرزى لجأ إليه، وطالبوه بتسليمه، فاضطر الحاكم أن يخبرهم بنفسه أنه ليس موجوداً بقصره(٤)، وكان قد سهل له سبيل الفرار إلى بلاد الشام.

---

(١) المقريزى : خطط ، جـ ٢ ص ٣٦ ، ٣٧.

(٢) انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨١ - ١٨٢.

(٣) المقريزى : خطط ، جـ ١ ص ١٨١.

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages , pp.132-133

واجه الأتراك منافسة شديدة من السودانيين فى عهد المستنصر، فشبت بين الفريقين معارك عنيفة، وقف منها الجند المغاربة إلى جانب الأتراك، فأوقعوا الهزيمة بالسودانيين رغم المساعدات التى قدمتها لهم أم المستنصر، واستقر خمسة عشر ألفاً منهم فى الصعيد حيث عاثوا فى البلاد فساداً ، وأخذوا يشنون هجمات متتالية عن طريق البر والنهر على القاهرة رغبة في الاستيلاء عليها وطرد الأتراك منها.

كان يتولى قيادة الأتراك فى أوائل عهد المستنصر ناصر الدين الحسين ابن حمدان التغلبى، وقد ازداد نفوذهم فى القاهرة بعد طرد السودانيين إلى الصعيد ، وسرعان ما استفحل أمرهم وأخذوا يطالبون الخليفة بزيادة مرتباتهم سنة ٤٦٠ هـ، فزاد فى أعطياتهم حتى بلغت أربعمائة ألف دينار فى كل شهر بعد أن كانت ثمانية وعشرين ألف دينار.

لم يقنع جند الأتراك بالمرتبات التى قررها لهم المستنصر، بل ألحوا فى زيادة مخصصاتهم، ولما أظهر عجزه عن تلبية طلباتهم لقلة إيرادات الدولة ألزموه ببيع ذخائره، فأخرجها إليهم وقوموها على أنفسهم بأبخس الأثمان[١].

واصل ناصر الدولة بن حمدان سياسته فى محاربة العبيد، فسار على رأس جماعة من الأتراك إلى الصعيد لتحقيق هذه الغاية، واشتبك معهم فى قتال عنيف قضى فيه على كثير منهم.

لم يكد يفرغ ناصر الدولة بن حمدان من التغلب على السودانيين حتى كشف القناع عن غرضه الأصلى ، فجاهر بالإساءة للمستنصر ، واستبد بالأمور دون الأتراك ، كما استأثر بأموالهم . وكان ذلك مما جعلهم يسعون إلى الخلاص منه ، فرفعوا شكاياتهم من تصرفاته إلى خطير الملك وزير

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ١٧.

المستنصر، ولما تحقق هذا الوزير من صدق قولهم لامهم على انضمامهم إليه أول الأمر، وحسن لهم الخروج عليه ومناهضته، ثم توجهوا إلى المستنصر وأظهروا له استياءهم من ناصر الدولة، كما طلبوا منه أن يخرجه من الديار المصرية، فبعث إليه المستنصر يأمره بالرحيل عن مصر ويهدده بإلحاق الأذى به إن امتنع عن الخروج منها، فسار ناصر الدولة إلى الجيزة، ثم عاد بعد قليل إلى دار القائد تاج الملوك شاذى بالقاهرة وقدم له فروض الطاعة، وطلب منه أن يعاونه على التخلص من خطير الملك وإلدكز - أحد أمراء الأتراك - لاعتقاده أنهما كانا السبب فى حمل الأتراك على مناهضته واضطهاد المستنصر له، فوعده تاج الملوك بتنفيذ رغبته، وما لبث أن تمكن من قتل الوزير خطير الملك. أما إلدكز فقد التجأ بقصر المستنصر واستجار به، وأخذ يحرضه على قتال ناصر الدولة، فلقى هذا القول قبولا من الخليفة، وخرج على رأس فريق كبير من جنده وألحق بناصر الدولة هزيمة ساحقة فمضى منهزماً فى نفر قليل من أصحابه إلى البحيرة حيث انضم إليه فريق من الأعراب[1].

على الرغم من أن الخليفة المستنصر أظهر بعض الجرأة خلال هذه الاضطرابات، وتمكن من هزيمة ناصر الدولة بفضل مساعدة بعض الجند الذين كانوا لا يزالون على ولائهم له، إلا أن سلطته لم تعد تتعدى فى الواقع حدود عاصمته، فبينما كان الجند السودانيون يثيرون الاضطرابات فى الوجه القبلى، كان نحو من أربعين ألف فارس من قبيلة لواتة والأعراب تحت زعامة ناصر الدولة يغيرون علي الوجه البحرى وينهبون بلاده ويحطمون الجسور والقنوات مما ترتب عليه انقطاع المؤن والإمدادات عن القاهرة والفسطاط[2] . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن ناصر الدولة بعث

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ١٩.

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages , pp.146

سنة ٤٦٢هـ إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولا من قبله يسأله أن يرسل إليه عسكراً ليقيم الدعوة العباسية على أن تئول إليه السيادة على مصر فرحب ألب أرسلان بذلك، غير أنه ما لبث أن شغل بمحاربة الروم عن المسير إلى دمشق ثم مصر(١).

ولما بلغ المستنصر أن ناصر الدولة أرسل إلى ألب أرسلان يستدعيه إلى الديار المصرية، جهز إليه جنداً من الأتراك لمحاربته بالبحيرة، فأوقع بهم ناصر الدولة الهزيمة، وغنم منهم مغانم كثيرة ، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى الإسكندرية ودمياط وجميع أنحاء الوجه البحرى وحال دون وصول الأقوات إلى القاهرة ومصر(٢).

وكان مما زاد الحالة سوءاً تلك المجاعة التى بدأت بانخفاض النيل سنة ٤٥٧ هـ، واستمرت سبع سنين، فقلت الأقوات بالقاهرة ومصر، وغلت الأسعار، فبلغ ثمن الرغيف من الخبز الذى زنته رطل أربعة عشر درهماً، وأردب القمح ثمانين دينارا(٣) والبيضة الواحدة ديناراً وأصبح المنزل يباع مقابل عشرين مكيالا من القمح، وقد عانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة مثل ماعاناه الفقراء تماماً(٤)، واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان إلى مغادرة مصر والرحيل إلى بلاد الشام والعراق(٥).

رأى الجند الأتراك بعد ما حل بهم وبالخليفة المستنصر من الشدائد بسبب المجاعة أن يصالحوا ابن حمدان على أن يظل مقيما بالبحيرة ويحمل

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ١٩ – ٢٠.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢٠ والمقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٣٦.

(٣) انظر : المقريزى خطط جـ ١ ص ٣٣٧.

(٤) انظر : أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٥ – ١٧.
Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 146-147.

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢٠.

إليه مبلغ مقرر من المال ويكون تاج الملوك شاذى نائباً عنه، فرضي بذلك، وأرسل الغلال إلى القاهرة ومصر، مما أدى إلى توفر القوت الضرورى للأهالى(١).

على أن تاج الملوك شاذى سرعان ما نقض هذا الصلح واستبد بالأمور فى القاهرة وصار لا يرسل لابن حمدان إلا القليل من الأموال. فاستاء من ذلك ابن حمدان وسار فى جموع العربان إلى الجيزة حيث تمكن من القبض على شاذى، كما أطلق لجنده العنان فى الفسطاط، فنهبوا دورها وأشعلوا النيران فيها، ولما استفحل أمرهم عول المستنصر على محاربتهم. فأنفذ إليهم فريقاً من جنده ، ودارت بين الفريقين عدة معارك انتهى الأمر فيها بهزيمة أتباع ابن حمدان وفرارهم إلى البحيرة.

ظل ناصر الدولة حمدان على الرغم من الهزيمة التى لحقت به – يعمل على إضعاف شأن الخليفة الفاطمى والاستئثار بالحكم، فحذف فى سنة ٤٦٤ هـ اسم المستنصر من الخطبة فى الوجه البحرى، وبعث إلى الخليفة القائم العباسى ببغداد يلتمس الخلع، ثم قدم إلى الفسطاط على رأس جيش كبير وتولى الحكم فيها، وأرسل إلى المستنصر يطلب منه الأموال. كان إذ ذاك قد امتنع بقصره(٢)».

كانت حالة المستنصر حين وفد إليه رسول ناصر الدولة تنبئ بزوال أبهة الخلافة عنه، فلما علم بذلك ناصر الدولة أطلق للخليفة مائة دينار كل شهر وتولى الحكم فى القاهرة، وأظهر ميله إلى مذهب أهل السنة، واضطر كثير من

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢١.

(٢) المقريزى : خطط ، جـ ١ ص ٣٣٧.

أقارب المستنصر وأولاده إلى النزوح إلى المغرب والعراق[١].

خشى الأتراك على أنفسهم من جراء استبداد ناصر الدولة بالأمور فى القاهرة وإقامته الدعوة العباسية وعمله على إزالة خلافة الفاطميين، فاجتمع بهم إلدكز ويلدكوز وأعلماهم إن تم لناصر الدولة تحقيق مايريده سيقضى عليهم ؛ ومن ثم اتفقوا على تدبير مؤامرة لقتله، فركب إلى داره فريق منهم ذات ليلة وانقضوا عليه بسيوفهم، ولم يكتفوا بذلك، بل تتبعوا كل أفراد أسرة بنى حمدان بمصر وتخلصوا منهم[٢].

(د) الأرمن : لم تنته الفوضى والاضطرابات التى انتابت مصر بقتل ناصر الدولة بن حمدان، بل سرعان ما ازداد نفوذ إلدكز وأتباعه من الأتراك واستبدوا بالأمور دون المستنصر حتى ضاق بهم ذرعاً واضطر سنة ٤٦٦ هـ أن يبعث إلى بدر الجمالى [٣] والى عكا يطلب منه القدوم ليتولى تدبير شئون دولته وإصلاح مافسد من أمور مصر، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من عساكر بلاد الشام ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر فوافق المستنصر على طلبه.

ولما أتم بدر الجمالى إعداد عدته للرحيل إلى مصر، أبحر من عكا ومعه جند كثير من الأرمن وغيرهم وغير مبال بأخطار البحر فى فصل الشتاء ونزل مع جنده بدمياط، فاقترض من تجارها بعض المال، ثم تابع سيره حتى وصل قليوب؛ وهناك بعث إلى المستنصر يقول له إنه لن يدخل القاهرة إلا بعد قتل يلدكوز – أحد أمراء الأتراك – فوافقه الخليفة على مطلبه[٤].

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢١.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢٢.

(٣) كان بدر الجمالي مملوكا أرمنيا للأمير جمال الدولة بن عمار، ثم أخذ يترقى فى المناصب لما أظهره من كفاية خلال الحروب التى قامت في بلاد الشام حتى ولى أمارة دمشق من قبل المستنصر سنة ٤٥٦ هـ وأخذ يحارب الأتراك في تلك البلاد ولم يلبث أن أصبح من أقوى قوادها، ثم تقلد نيابة عكا سنة ٤٦٠ هـ (المقريزى: خطط جـ ١ ص ٣٨١).

(٤) المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ٣٨١.

ولما دخل بدر الجمالى مدينة القاهرة على رأس جنده الأرمن، استقبله الجند الأتراك استقبالا وديا لأنهم لايعلمون شيئاً عن نواياه نحوهم، وما لبث أن دبر مؤامرة للتخلص من قوادهم، فعين لكل واحد من ضباطه الأرمن أحد القواد الأتراك ليقتله خلال الليل. ولم يكد يشرق صباح اليوم التالى حتى تقدم ضباطه حاملين رءوس قواد الأتراك الذين عهد إليهم بقتلهم [١]. وبذلك تمهدت له الأمور.

رحب الخليفة المستنصر بقدوم بدر الجمالى، وبلغ من تقديره لكفايته أنه حين شرع فى العمل على توطيد الأمن وإصلاح حال البلاد خلع عليه بعقد من الأحجار الكريمة وقلده وزارة السيف والقلم، كما زاد فى ألقابه السيد الأجل أمير الجيش كافل قضاة المسلمين وداعى المؤمنين[٢].

كان يحيط ببدر الجمالى جنده الأرمن الذين عرفوا بالمشارقة تمييزاً لهم عن الأتراك والبربر والسودان[٣]. وقد تفانوا فى الإخلاص له، واحتفظ الكثيرون منهم بديانتهم المسيحية ؛ وكان يرافقهم بطريق خاص بهم. ولم يظهر هؤلاء الأرمن تذمراً من البقاء فى مصر، بل آثروا الإقامة بوطنهم الجديد على العودة إلى بلادهم لتعذر حصولهم فيها على مقومات الحياة.

اتخذ بدر الجمالى مقرا له بحارة برجوان بالقاهرة[٤] وعول على إعادة الأمن والسكينة إلى العاصمة واستعادة كل ما يمكن أن تصل إليه يده من كنوز

---

(١) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, pp.150-151

(٢) المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ٣٨٢.

(٣) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.150.

(٤) المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ٤٦١.

الخليفة التى نهبت من قصره. وعندما فرغ بدر الجمالى من إعادة الأمور إلى نصابها في العاصمة والفسطاط بدأ يوجه عنايته إلى بقية الأقاليم، فاتجه أولا نحو الوجة البحرى ، فأخضع بنى لواتة، كما توجه إلى دمياط وقتل جماعة المفسدين، ثم سار إلى الصعيد، سنة ٤٦٩ هـ حيث كان الجند السودانيون وجماعة من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة، فانقض عليهم فجأة وأفنى أكثرهم، وغنم منهم كثيراً من الغنائم [١]، وأعاد نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلى حتى أسوان[٢].

لم تكن الحالة بالإسكندرية أحسن منها فى غيرها من المدن المصرية، فقد ثار بها سنة ٤٧٧ هـ الأوحد على أبيه بدر الجمالى، والتف حوله جماعة من الأعراب، فسار إليه أبوه وقبض عليه، كما قتل فريقاً من أتباعه ، ولم يكتف بذلك، بل صادر كثيراً من أموال أهالى الإسكندرية، وأنفق منها على بناء جامع العطارين[٣] الذى ظلت تقام به الخطبة إلى أن استبد صلاح الدين بالأمور فى مصر.

استطاع بدر الجمالى بعزمه ومهارته أن يعيد إلى البلاد المصرية ماكانت تتمتع به من رخاء قبل الشدة العظمى التى حلت بها واستمرت سبع سنوات (٤٥٧ - ٤٦٤ هـ)، فزاد خراج مصر فى أيامه من ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار إلى ٣,١٠٠,٠٠٠ دينار. وعاد الفلاحون إلى الأرض يزرعونها وتحسنت أحوالهم بعد أن رفع عن كاهلهم بعض الأعباء المالية [٤]

---

(١) المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ٣٨٢.

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.151.

(٣) المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ٣٨٢

(٤) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.151.

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى سياسة بدر الجمالى فى مصر أنه انتهز فرصة استبداده بالسلطة فى أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمى، ومهد لابنه الأفضل الاستيلاء على مقاليد الأمور فى الدولة ، فجعله ولى عهده، ولما توفى بدر الجمالى فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ، وهو فى الثمانين من عمره، خلفه ابنه الأفضل شاهنشاه فى الوزارة ، وظل المستنصر فى عهد وزارته كالمحجور عليه إلى أن توفى فى ١٧ ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ[١] .

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٣٠.

(٢) المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٦ ، ٣٨٢ .

الباب الخامس

عصر نفوذ الوزراء الفاطميين

١- ازدياد سلطة الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى

٢- زوال الخلافة الفاطمية

الباب الخامس
عصر نفوذ الوزراء الفاطميين

١- ازدياد سلطة الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى

أخذ نفوذ الوزراء فى الازدياد منذ أواخر عهد المستنصر بالله، وبدأ ذلك باستئثار بدر الجمالي بالسلطة دون الخليفة، وتغالى ابنه الأفضل فى اغتصاب حقوق هذا الخليفة، بل أقدم بعد وفاته سنة ٤٨٧ هـ على إقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر أبنائه عن العرش، وبايع أخاه الصغير الأمير أبا القاسم أحمد الذي لقب بالمستعلى بالله فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ وكانت أم المستعلى هذا ابنة بدر الجمالى وأخت الأفضل. لذلك كان بدر يحبذ تعيينه خليفة بعد أبيه، كما حرص ابنه الأفضل على تحقيق هذه الأمنية حين أراد المستنصر قبيل وفاته أخذ البيعة لابنه نزار على رجال الدولة فتقاعد الأفضل عن ذلك وماطله حتى مات[1]. وكان الأفضل يعتقد أن نزاراً إذا ولى الخلافة حال بينه وبين مناصب الدولة ، على حين كان أبو القاسم أحمد صغير السن، ففى استطاعته إذا ما ولاه الخلافة أن يصبح مطلق التصرف فى شئون الدولة.

أدى إقصاء نزار عن الخلافة رغم أحقيته لها إلى اضطراب الأمور فى بعض البلاد المصرية؛ فخرج أهل الإسكندرية على طاعة الخليفة الفاطمى الجديد وانحازوا إلى نزار بعد أن قدم إليهم مع أخيه عبد الله وبايعوه بالخلافة ولقبوه المصطفى لدين الله ، كما رحب به واليها ناصر الدولة أفتكين.

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ، ص ٣٥.

لما وصل إلى الأفضل بن بدر الجمالى نبأ هذه الفتنة التى أثارها نزار سار إلى الإسكندرية على رأس حملة، وهناك دارت معركة بينه وبين واليها ناصر الدولة أفتكين الذى وعده نزار بالوزارة إن ظفر هو بالخلافة ، غير أن المعركة انتهت بهزيمة الأفضل وارتداده إلى القاهرة حيث أعد حملة جديدة فى أوائل سنة ٤٨٨ هـ، حاصر بها الإسكندرية مدة سبعة أشهر، ارتكب فى أثنائها كثيراً من ضروب القسوة والقتل، حتى اضطر كل من أفتكين ونزار إلى طلب الأمان ؛ فأمنهما الأفضل ثم أمر بإنفاذهما إلى القاهرة حيث نكل بهما[١].

ويتبين لنا من الرسالة التى بعث بها الخليفة المستعلى فى صفر سنة ٤٨٩هـ إلى الملكة الحرة السيدة أروى الصليحية – وكانت تتولى إذ ذاك شئون اليمن– الظروف التى قامت فيها ثورة نزار وتغلب الأفضل بن بدر الجمالى عليه. وقد جاء فيها[٢]: «من عبد الله ووليه أحمد بن أبى القاسم الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى الحرة الملكة السيدة السديدة .. ولية أمير المؤمنين .. قد علمت ما كان صدر إليك من حضرة أمير المؤمنين عندما أصاره الله تعالى إليه من إرث خلافته... وذلك بالنص الذى كان من مولانا الإمام المستنصر بالله ... وإن البيعة انتظمت لأمير المؤمنين على أجمل القضايا والأسباب، ودخل الناس فيها من كل باب، بحسن سياسة فتاه وخليله السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين .. وكان الأمراء إخوة أمير المؤمنين أول من دخلوا فى البيعة مسارعين وانقادوا لأحكامها طائعين. ومن جملتهم نزار وهو الأخ الأكبر سناً .. ثم إن الشيطان استزله واستغواه .. ففارق جناب أمير المؤمنين.

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ، ص ٣٦ – ٣٧.

(٢) انظر السجلات المستنصرية رقم ٤٣، ص ١٤٥ – ١٥١.

وسار منه متوغلا فى القفار، راكباً الأخطار حتى وصل إلى الإسكندرية وفيها أفتكين – أحد مماليك السيد الأجل أمير الجيوش ... فقابل هذا العبد العاق .. نعم مواليه بالكفر .. ووافق نزاراً على ماسعى إليه من الفساد .. فتقدم أمير المؤمنين إلى فتاه الأمين .. بأن يكاتبهم معذراً وزاجراً .. وهم على غلوائهم متمادون .. إلى أن حملهم العدوان على البروز عن الإسكندرية فيمن انضم إليهم من لفيف الأجناد وطوائف العربان والمغاربة والسودان ... فصدمهم صدمة تزعزع منها أركان الجبال .. ولما يسر الله تعالى مفتتح هذا النصر .. أذن أمير المؤمنين لفتاه السيد الأجل باتباعهم .. فتوجه يقتص آثارهم .. واختلف الطعن والضرب حتى خاضت الخيل فى بحر من الدماء ...، وكان المخاذيل فى هذه النوبة قد تجمعوا من كل فج وواد، فزادت عدتهم على ثلاثين ألف فارس وراجل، فرمى الله جمعهم بالحتف العاجل .. وكان الفتح فى هذه الوقعة مثل ماتقدمه بحملات واصلها السيد الأجل بنفسه وغلمانه .. فلم تزل السيوف تتحكم فيهم إلى أن سترتهم الظلماء، وقتل وأسر منهم ألوف كثيرة .. وتوجه نحوهم حتى نزل على البلدة فى خيامه .. فحصرها براً وبحراً .. وحضر شهر الصوم فأخر مناجزتهم حفظاً لحرمة الشهر الشريف ... فلما انقضى (هذا الشهر) ولم تنقض غوايتهم وبغيتهم .. رماهم بحجارة المنجنيقات .. فلم تمض إلا أيام قلائل حتى تداعى الحصن من سائر أركانه، فتهاوت الرجال مستأمنين وبالعفو لائذين ... فأيقن أفتكين اللعين انقضاء مدته .. فخرج بغير عهد ولا عقد يتعلق به ، ووقف بين يدى مولاه ملتحفاً ثوب الذل والهوان .. فأضرب عنه صفحاً ... وتوفر على المهم من الحوطة على نزار ، وحفظ الثغر من عوادى النهب والأضرار .. وتنزه عن معالجة ذلك اللعين بالجزاء على ذميم أفعاله، وألقاه فى جانب الاطراح والإذلال إلى أن يأمره أمير المؤمين بما يرشد بامتثاله... »

لم يقتصر الأثر الذى أحدثه إقصاء نزار عن الخلافة وقتله على ظهور

فريق من الناس يتشيع له بمصر، بل دعا إلى إمامته بعض أهالى بلاد الفرس من الإسماعيلية الذين كانوا يدعون إلى انتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل وبنيه من بعده. وقد بدأ نشاط هذه الطائفة في بلاد الفرس منذ لجأ محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق إلى دماوند (قرب الرى) بسبب ماتعرض له العلويون من اضطهاد على يد خلفاء العصر العباسى الأول كما ظهر له أتباع فى بلاد الشام.

تجلت قوة طائفة الإسماعيلية فى بلدة ساوة (بين الرى وهمذان) فى أيام السلطان ملكشاه السلجوقى ، ومازال نفوذهم فى ازدياد حتى استولوا على أصبهان ونشروا بها دعوتهم فى عهد زعيمهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش. وكان من تلامذته الحسن بن الصباح الذى تقلد رئاسة الدعوة الإسماعيلية فى أصبهان، ثم رحل إلى مصر ليتعمق فى دراسة المذهب الإسماعيلى فى دار الحكمة وفى غيرها من مجالس الدعوة بالقاهرة.

حدث فى أثناء وجود الحسن بن الصباح بالقاهرة أن عين الخليفة المستنصر ابنه الأكبر نزاراً ولى عهد. وكان الحسن بن الصباح يرى أن تولية نزار الإمامة بعد أبيه المستنصر تتفق مع تعاليم الإسماعيلية التى تشترط فى الإمام أن يكون أكبر أبناء أبيه. وهذا على خلاف ما رأى بدر الجمالى وابنه الأفضل. ويروى بعض الكتاب[١] أن الحسن بن الصباح سأل الخليفة المستنصر يوما عن ولى عهده بقوله : من الإمام بعدك؟ فقال له : ولدى نزار . غير أن فريقاً آخر[٢] يذكر أن الحسن بن الصباح لم يحظ في أثناء إقامته بالقاهرة بمقابلة المستنصر ، وأن الخليفة ولى ابنه الصغير أحمد العهد تحت تأثير بدر الجمالى.

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ، ص ٢٧ ، وابن خلدون : جـ ٤– ص ٦٦.

(٢) Dozy, Essai sur l'Islamisme, p.301.

أدى الخلاف بين الحسن بن الصباح وبدر الجمالى بشأن ولاية العهد إلى نزاع داخلى، إذ رأى بدر في وجود الحسن بن الصباح بالقاهرة خطرا يهدد كيانه؛ فأخذ يكيد له ثم زجه فى السجن بمدينة دمياط. ولم يكتف بدر الجمالى بذلك؛ بل عول على إخراجه إلى بلاد المغرب؛ غير أن الريح قذفت بالسفينة التي أبحر عليها من الإسكندرية فى رجب سنة ٤٧٢ هـ إلى سواحل الشام، فنزل بثغر عكا وقصد منها إلى حلب فبغداد، ثم اتجه إلى خوزستان - وكانت إذ ذاك مركزاً هاماً للإسماعيلية - ثم سار الحسن بن الصباح إلى أصبهان حيث أخذ ينادى بإمامة المستنصر وابنه نزار من بعده، ولذلك عرف هو وأتباعه بالنزارية.

ولما توفى المستنصر سنة ٤٨٧ هـ، وخلفه ابنه المستعلى، أذاع الحسن بن الصباح بين أنصاره أن المستعلى اغتصب الخلافة والإمامة من نزار ؛ وبذل قصارى جهده فى الرد على حجج طائفة المستعلية بمصر، فزود مكتبات قلاع الإسماعيلية ببلاد الفرس بالمؤلفات الكثيرة التى تثبت صحة إمامة نزار وبطلان إمامة المستعلى[١].

أما عن الحالة الداخلية فى مصر بعد القضاء على الفتنة التى أثارها نزار فإن الأفضل بن بدر الجمالى قبض على شئون الحكم فى البلاد، واستبد بالسلطة دون المستعلى، ومن ثم دخلت مصر فى عهد نفوذ الوزراء، وصار وزير السيف - كما يقول المقريزى[٢] «هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذى يولى المناصب الديوانية والدينية» ، كما خلع عليه منذ ذلك الحين بالعقد المنظوم بالجوهر، وزيد له فى زيه الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور وهو زى قاضى القضاة ، وغدا يتقلد السيف إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف والأقلام[٣].

(١) طه شرف : دولة النزارية ، ص ٢١٢.

(٢) خطط، جـ١ ـ ص ٤٤٠.

(٣) المقريزى : خطط جـ ٢ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

بلغ من نفود الأفضل أنه لما توفى المستعلى سنة ٤٩٥ هـ أحضر ابنه أبا على وبايعه بالخلافة وأقامه مكان أبيه ولقبه بالآمر بأحكام الله، وعمره وقتذاك خمس سنين[١]. ويتضح علو شأن الوزير الأفضل ومكانته فى الدولة من سجل تولية الآمر الخلافة الذى جاء فيه[٢] : «.. : وقد كان الإمام المستعلى – قدس الله روحه – عند نقلته جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ماحازه من أبيه عن جده وعهد إلى أن أخلفه فى العالم وأجرى الكافة فى العدل والإحسان .. ، وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرتهم المرضية..

وكان مما ألقاه إلى وأوجبه على أن أعلى محل السيد الأجل الأفضل من قلبه الكريم ، وما يحب له من التبجيل والتكريم ، وأن الإمام المستنصر بالله كان عندما عهد إليه (إلى المستعلى)، ونص بالخلافة عليه، وأوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجل خليفة وخليلا، ويجعله للإمامة زعيما وكفيلا ... ويفوض إليه تدبير ما وراء السرير، وأنه عمل بهذه الوصية .. وأسند إليه أحوال العساكر والرعية، وناط أمر الكافة بعزمته الماضية وهمته العلية ... ، فأوصانى أن أجعله لى – كما كان له – صفياً وظهيراً ، وألا أستر عنه من الأمور صغيراً ولا كبيراً، وأن أقتدى به في رد الأحوال إلى تكلفه، وإسناد الأمور إلى تدبيره ...».

استغل الأفضل بن بدر الجمالى سلطته فى عهد الآمر ، فلم يعن بالاحتفاظ برسوم الفاطميين الدينية ، بل أخذ يميل ميل السنيين، وقد تجلت هذه الظاهرة فى إلغائه الاحتفال بمولد النبى ﷺ ومولد ابنته فاطمة وعلى – رضى الله عنهما – ومولد الخليفة القائم بالأمر . ولا يخفى

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ، ص ٤٠.

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ١٤ – ١٧.

انظر : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ١٨٣ – ١٩٠

علينا أن عمله هذا يؤدى إلى إضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد انتسابهم إلى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام.

على أن الخليفة الآمر الذى ضعفت سلطته كثيراً بتداخل الأفضل لم يلبث بعد أن بلغ سن الرشد أن شعر بالحاجة إلى التخلص من وزيره ؛ فأوعز إلى أبى عبد الله محمد بن البطائحى - أحد خواص الوزير - بتدبير مؤامرة لاغتياله؛ فقتل الأفضل وخلفه ابن البطائحى فى الوزارة سنة ٥١٥ هـ(١).

كذلك حرص الآمر على أن يخلفه أحد أولاده، فلما رزق طفلا فى ربيع الأول سنة ٥٢٤ هـ، سماه أبا القاسم الطيب واحتفل بإعلان البشرى بولادته وتوليته الإمامة من بعده(٢) ؛ غير أن هذا الخليفة سرعان ماقتل بتدبير فريق من النزارية(٣) فى اليوم الرابع عشر من شهر ذى القعدة من هذه السنة، فقبض على زمام السلطة بعض رجال الجيش، ووقع اختيارهم على الأمير أبى الميمون عبد المجيد ابن عم الآمر ليلى أمور الخلافة ؛ فأخفى أمر الإمام الطيب، وبايعه الناس بولاية العهد ولقب الحافظ لدين الله، وأقيم كفيلا لحمل منتظر لأن الآمر لما مات ترك إحدى زوجاته حاملا(٤).

على أن الأمير عبد المجيد لم تتح له الفرصة للاحتفاظ بسلطته فى الدولة بسبب ثورة الجند عليه وتوليتهم قائداً يدعى أبو على أحمد بن الأفضل الوزارة. فبدأ هذا الوزير عمله بمنع الحافظ من التصرف فى شئون الدولة، كما سجنه فى خزانة؛ وصار لا يسمح لأحد بزيارته إلا بإذنه(٥)، وأمر الخطباء بحذف اسمه من الخطبة، واستولى الوزير على جميع مافى قصر الحافظ من الذخائر

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر ، ص ٧٢.

(٣) كان لا يزال للنزارية أعوان فى مصر ، يرون أن الآمر وأباه المستعلى وليا الخلافة دون حق.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر ، ص ٧٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزهراء ، جـ ٥ ص ٢٤٠ - ٢٤١.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٤٠.

والأمـــوال زاعـــمـــاً أن ذلك كـــان لأبيــه ؛ واســـتـــأثر منذ ذلك الوقت بالسلطة والنفوذ.

لم يكن الوزير أبو على أحـمـد بن الأفـضل إسـمـاعيلى المذهب، بل كـان إمامياً؛ لهذا شرع على أثر توليته الوزارة فى اتخاذ إجراءات غايتها إظهار مذهب الإمامية وإضعاف مذهب الإسماعيلية، فأمر بإسقاط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق - الذى تنتسب إليه الإسماعيلية - من الخطبة والدعاء لمحمد المنتظر الإمام الثانى عشر عند طائفة الإمامية، وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الإمام المنتظر ونقش عليها «الله الصمد، الإمام محمد» كما أبطل من الأذان «حى علي خير العمل» ، وقولهم : «محمد وعلي خير البشر»، واختار لنفسه ألقاباً يقرن بها اسمه فى الخطبة ، وهى «السيد الأجل الأفضل ، مالك أصحاب الدول، المحامى عن حوزة الدين، ناشر جناح العدل علي المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتى غيبته وحضوره، والقائم فى نصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادى القضاة إلى اتباع شرح الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، رافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم»[1].

كـذلك أمـعن الوزير أبو على أحـمـد بن الأفـضل فى إضـعـاف المذهب الإسماعيلى بأن عين سنة ٥٢٥ هـ أربعة قضاة : اثنين من الشيعة، أحدهما إمامى والآخر إسماعيلى؛ واثنين من السنيين، أحدهما شافعى والآخر مالكى. وأعطى لكل منهم السلطة فى إصدار أحكامه وفق مذهبه، وقد علق المقريزى علي هذا النظام بقوله : «ولم يسمع بمثل هذا فى الملة الإسلامية قبل ذلك[2]».

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ، ص ٧٥.

(٢) انظر : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٩٠.

وعلى الرغم من أن الوزير أبا علي أحمد بن الأفضل قد استقل بحكم البلاد، فإنه كان يرى أن بقاءه فى منصبه مستأثراً بالسلطة يتوقف إلى حد كبير على من يلى أمر الخلافة بعد أن أبعد الحافظ وشدد عليه الرقابة فى سجنه. وكان أهم ما يشغله ذلك المولود الذى وضعته إحدى نساء الآمر، وقد اختلفت أقوال المؤرخين فى شأنه، فبينما يذكر البعض[١] أن المرأة التى تركها الآمر حاملا وضعت أنثى. يشير البعض الآخر[٢] إلى أن المولود كان ذكراً، وأن أمه أخفته فى القرافة خوفاً على حياته من الطامعين فى الخلافة، وظل الوزير أبو على أحمد يضيق الخناق على أهل القصر الفاطمى لعله يصل من وراء ذلك إلى مكان اختفائه، وكان الوزير يود أن يظفر بهذا المولود ليتخلص منه انتقاماً لمن قتلهم الخليفة الآمر من إخوته ورغبة فى التخلص من وريث شرعي للخلافة، غير أنه لم يتمكن من العثور عليه.

لم يتمتع الوزير أبو على أحمد بن الأفضل طويلا بالحكم، إذ كان لسياسته التى تنطوى على مناهضة المذهب الإسماعيلى أسوأ الأثر في نفوس الإسماعيلية فكونوا معارضة قوية ضده بزعامة الأمير أبى الفتح ناصر الجيوش يانس[٣] الأرمنى، وتآمروا على اغتياله، فكمن له جماعة منهم وقتلوه سنة ٥٢٦ هـ بعد أن ظل مستأثراً بالسلطة سنة وشهراً، وأخرجوا الحافظ من سجنه . وبذلك قضى بالفشل على محاولة نشر مذهب الإمامية في مصر، واستعاد المذهب الإسماعيلى مكانته، واعتبر اليوم الذي أطلق فيه سراح الحافظ وأعيد إلى الحكم عيدا عرف بعيد النصر، وظل الفاطميون يحتفلون به إلى أن زالت دولتهم.

لم يكن للحافظ حق شرعى فى الخلافة ، ذلك أنه لم يكن ابناً للآمر،

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة . جـ ٥ ، ص ٢٣٨

(٢) انظر : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٩٤ - ٩٥.

(٣) يانس هذا مولى أرمنى، أهدى إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى وترقى فى خدمته إلى أن أصبح أميرا.

(انظر : المقريزى ، خطط جـ ٢ ، ص ١٧) .

وإنما ابن عمه، فلما أطلق سراحه بعد مقتل الوزير أبى على أحمد بن الأفضل، رأى رجال الدولة في مصر أن يعيدوه ولياً للعهد وكفيلا لولد الآمر الذى لم يعرف مقره[١].

على أن الحافظ كان يطمع فى الاستقلال بالخلافة، ومن ثم أمعن فى البحث عن ولد الآمر، فلما اهتدى إلى محل إقامته - بعد شهرين من عودته ولياً للعهد - أسرع إلي التخلص منه، ثم أعلن نفسه خليفة، وقرئ سجل بإمامته فى ٣ ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ، وأمر الحافظ بأن يدعى له من المنابر بهذه العبارة : «اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت به الإسلام بأن جعلت طلوعه علي الأمة وظهوره آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا إمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبى ميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين»[٢]

اتخذ الحافظ بعد أن استقرت له الخلافة الأمير يانس الأرمنى وزيراً له : غير أن وزارته لم يطل أمدها، فقد توفى بعد تسعة أشهر، وتولى الحافظ أمور الدولة بنفسه، فلم يستوزر أحداً، وظل منصب الوزارة شاغراً حتى طمع فيه بهرام الأرمنى والى الغربية، فقدم إلى القاهرة فى شهر جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ ، وحاصرها يوماً فاضطر الحافظ إلى توليته الوزارة على الرغم من عدم دخوله الإسلام.

لم يكترث بهرام بما أظهره الناس من السخط عليه ، بل تغالى فى التحيز لبنى جنسه ، فبعث فى طلب كثير من الأرمن إلى مصر حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً بعد زمن قصير . وكانت سياسة هؤلاء المسلمين فى مصر

---

(١) المقريزى : خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٥٧ ، مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٩٨.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر ، ص ٧٤ - ٧٥.

لا تنطوى على شئ من الود، اتسمت بروح العداء فاشتد جورهم، وصادروهم في أموالهم، وأكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره مما حمل المسلمين على متابعة الشكاية من أهل بهرام وأقاربه . كما بعث أمراء الجيش وقواده إلى رضوان بن ولخشي والى الغربية يطلبون منه القدوم إليهم لينقذهم مما لحق بهم من سطوة الأرمن، فأجاب رضوان طلبهم وقدم إلى القاهرة على رأس جيش كبير وانضم إليه الجنود المسلمون في جيش بهرام، فازدادت بذلك قوته، واضطر بهرام إلى الرحيل عن القاهرة والالتجاء إلى أخيه الباساك والى قوص، فخلفه رضوان في الوزارة سنة ٥٣٠ هـ وتلقب بالسيد الأجل الملك الأفضل، وهو أول من لقب بالملك من وزراء مصر. وصار الوزراء الفاطميون الذين خلفوه يتلقبون بهذا اللقب.

واشتد رضوان في معاملة أعوان بهرام، فاستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم وهم بخلع الحافظ بحجة أنه ليس إماما، بل هو كفيل لغيره، فاستاء منه الحافظ، واضطر رضوان إلى الخروج إلى بلاد الشام، ثم ما لبث أن عاد إلى مصر على رأس جيش كبير سنة ٥٤٣ هـ فتصدى له جند الخليفة وأرغم علي المسير إلى الوجه القبلى حيث طارده الأمير أبو الفضائل بن مصال الذى عرض عليه عهد الأمان فاستجاب له وجاء إلى القاهرة. غير أن الحافظ لم يف بهذا العهد، فاعتقله بالقصر، ولم يزل فى معتقله حتى سنة ٥٤٢ هـ، حيث تمكن من الفرار وجمع أنصاره حوله، ثم دارت بينه وبين جند الخليفة السودانيين عدة معارك، انتهى الأمر فيها بهزيمته وقتله[1].

لم يتخذ الخليفة الحافظ وزيراً بعد أن اشتد الخلاف بينه وبين رضوان

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ، ص ٨٢ – ٨٣.

ابن ولخشي، فظل يحكم البلاد بلا وزير حتى توفى فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ، فخلفه بعهد منه ابنه أبو المنصور إسماعيل ولقب بالظافر بأمر الله، وولى الوزارة الأمير نجم الدين بن مصال ولقب بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش.

عاد التنافس فى عهد الظافر بين رجال الدولة على تقلد منصب الوزارة، فثار الأمير المظفر على بن السلار والى الإسكندرية والبحيرة، وقصد القاهرة على رأس فرقة من أعوانه ، فاضطر ابن مصال إلى الفرار وحل ابن السلار محل منافسه فى الوزارة وتلقب بالعادل، ثم جهز العساكر لمحاربة ابن مصال، وأخذت قواته تتعقبه حتى أوقعت به الهزيمة فى الوجه القبلى وقضت عليه، وبذلك خلا الجو لابن السلار وقام بأعباء الوزارة.

كان ابن السلار شافعى المذهب، فأنشأ سنة ٥٤٦ هـ بالإسكندرية مدرسة للشافعية، أسند إدارتها إلى الحافظ[١] السلفى الفقيه الشافعى، وذلك هيأ السبيل لرجوع المذهب السنى إلى مصر ، وقد أدى تعصبه لهذا المذهب ورغبته فى إحلاله بمصر محل المذهب الإسماعيلى إلى حقد الخليفة ورجال دولته عليه، فقتل بإيعاز منه سنة ٥٤٨ هـ. وفى العام التالى اغتيل الخليفة بتدبير من الوزير أبى الفضل عباس الذى خلف ابن السلار فى الوزارة.

أثار مقتل الخليفة الظافر أهالى القاهرة ، فنشبت المعارك فى طرقات المدينة وتعرض أتباع الوزير عباس لكثير من الضر والأذى بسبب سخط الأهلين عليهم حتى اضطروا إلى الانصراف عنه، كما أن هذا الوزير ما لبث أن لقى حتفه فى أثناء محاولته الفرار إلى سورية.

بويع بالخلافة بعد مقتل الظافر لابنه عيسى وهو فى الخامسة من عمره ولقب بالفائز بنصر الله ، وقد ساد الفزع القصر الفاطمى إذ ذاك وأرسل

(١) الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى الأصبهانى

نساء القصر إلى طلائع بن رزيك والى الأشمونين يطلبن منه القدوم لإنقاذهن من الأخطار المحدقة بهن[1] ؛ فقدم طلائع مرتدياً الثياب السوداء ومعه أعلام سود . وقد علق المقريزى[2] على ذلك بقوله : فكان فألا عجيباً، فإنه بعد خمس عشرة سنة دخلت أعلام بنى العباس السود من بغداد إلى القاهرة لما مات العاضد واستبد صلاح الدين بملك مصر».

تقلد طلائع بن رزيك الوزارة بعد قضائه على الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة على أثر مقتل الخليفة الظافر وتلقب بالملك الصالح؛ غير أنه ما لبث أن استبد بالسلطة، فقد أسند إليه الخليفة جميع أمور الدولة فى تقليد توليته الوزارة، وقد جاء فيه: «فقلدك من وزارته وفرض إليك تدبير ممالكه وكفالته، وجعل لك إمارة جيوشه الميامين وكفالة قضاء المسلمين، وهداية دعاة المؤمنين، وترديد ماهو مردود إليهم من الصلاة والخطابة، وإرشاد الأولياء المستجيبين والنظر فى كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين وجنوده وعساكره المؤيدين، وكافة رعاياه بالحضرة وجميع أعمال المملكة دانيها وقاصيها وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها[3]...».

ظل طلائع بن رزيك قابضاً على زمام الأمور فى مصر حتى توفى الفائز فى السابع عشر من رجب سنة ٥٥٥ هـ ، دون أن يوصى لأحد بولاية العهد أو الخلافة من بعده ، فأقام الوزير طلائع : العائد خليفة ؛ وفى ذلك يقول المقريزى: «لما مات الخليفة الفائز ، ركب الصالح بن رزيك إلى القصر بثياب الحزن ، واستدعى زمام القصر ، وسأله عمن يصلح فى القصر للخلافة فقال: ها هنا جماعة ، فقال عرفنى أكبرهم : فسمى له واحداً فأمر

(١) المقريزى : خطط ، جـ ٢ ص ٢٩٣.

(٢) خطط : جـ ٢ ، ص ٣٠.

مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٥٢ – ١٥٣.

بإحضاره، فتقدم إليه أمير يقال له، «على بن الزيد» ، وقال له سراً، « لا يكن (الوزير) عباس أحزم منك رأياً حيث قبل الصغير وترك الكبير، واستبد بالأمر، فمال (الصالح) إلى قوله، وقال للزمام، أريد منك صغيراً، فقال عندى ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله، وهو دون البلوغ فقال (الصالح) : على به ، فأحضره بعمامة لطيفة وثوب مفوط .. وكان عمره نحو إحدى عشرة سنة، ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء وهى لبس ولى العهد إذا حزن علي ما تقدمه، وقام فألبسه إياها ..»، وما لبث أن أخذ الصالح بيد عبد الله وأجلسه إلى جانبه، وأمر بأن يحمل إليه ثياب الخلافة فألبسها، وبايعه وتبعه سائر الناس فى مبايعته ولقب بالعاضد لدين الله فى يوم الجمعة الثامن عشر من رجب سنة ٥٥٥(١)هـ.

يتضح لنا مما تقدم إلى أى حد زادت سلطة الوزراء فى العصر الفاطمى الأخير حتى أصبحوا يتدخلون في تولية الخلفاء، بل لم يراعوا في توليتهم تعاليم الإسماعيلية، وفضلا عن ذلك فإن بعضهم انصرف عن تأييد مذهب الخليفة الفاطمى وأهل دولته كما فعل كل من أبى على أحمد بن الأفضل، وطلائع بن رزيك ، فقد أظهرا مذهب الإمامية، وعملا على إحلاله فى مصر محل مذهب الإسماعيلية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد كان للوزير طلائع بن رزيك مطامع خاصة تجلت في حرصه على زواج ابنته من الخليفة العاضد. وكان يرجو من وراء هذه المصاهرة أن ترزق ابنته منه ولداً «فيجتمع لبنى رزيك الخلافة مع الملك».

(١) راجع مجموعة الوثائق الفاطمية فى مصر ، ص ١٢٠ – ١٢٢.

٢- زوال الخلافة الفاطمية

تطور التنافس على الوزارة فى مصر في العصر الفاطمى الأخير إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى بسط سلطانهم عليها، فقد انفرد شاور الذى كان والياً على الصعيد بالسلطة بعد تخلصه من الوزير العادل بن طلائع بن رزيك في المحرم من سنة ٥٥٨ هـ ، غير أن ضرغام - أحد قواد الجيش - ما لبث أن ثار عليه وتقلد الوزارة، فاضطر شاور إلي الالتجاء بنور الدين محمود صاحب دمشق ليمده بقوة يستعين بها علي استعادة نفوذه ، ووعد بأن ينزل له عن ثلث خراج مصر إذا ما عاونه فى التغلب على ضرغام وانتزا ع الوزارة منه، فتردد نور الدين بادئ الأمر فى إجابة طلبه، ثم ما لبث أن قوى عزمه على تحقيق رغبته، فأعانه بحملة أسند قيادتها إلى أسد الدين شيركوه، فلما وصلت هذه الحملة إلى القاهرة تصدت لضرغام وتغلبت عليه، وبذلك خلا الجو لشاور، فأعيد إلى منصبه فى الوزارة فى رجب سنة ٥٥٩هـ[١]

على أن شاور سرعان ماتخلى عن حليفه نور الدين ، فلم يف بما عاهده عليه ، وأرسل إلى أسد الدين شيركوه يطلب منه الرجوع إلى الشام ولم يكتف بذلك ، بل بعث إلى أملريك[٢] (Amalric) ملك بيت المقدس يستمده ويخوفه من نور الدين إن ملك الديار المصرية ، فسارع إلى تلبية طلبه، وأرسل جيشاً أرغم شيركوه على العودة بجنده إلى الشام . وكان لهذه السياسة أثرها في توجيه أنظار كل من نور الدين صاحب دمشق والفرنجة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ١ ص ١٣٧ - ١٣٩.

(٢) ورد اسمه فى بعض المراجع .Amaury.

ببيت المقدس إلى غزو مصر، فأنفذ نور الدين حملة ثانية إلى مصر سنة ٥٦٢هـ بقيادة أسد الدين شيركوه وذلك حين ثبت لديه غدر شاور به ونقضه الاتفاق معه، وسير بصحبته بعض الأمراء، وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا فى هذه الحملة(١).

رأى شاور أن يستنجد مرة ثانية بالفرنجة، فاستقر رأيهم علي تحقيق رغبته خشية أن يستولى جيش نور الدين على مصر ويضمها إلى بلاد الشام فيصبح مركزهم فى بيت المقدس مهدداً بالأخطار. ولما وصلت عساكر الفرنجة إلى مصر انضمت إلى جيوش شاور والمصريين. وكان شيركوه قد تقدم بعساكره إلى الصعيد فتبعه الفرنجة والمصريون ، والتقى الفريقان في مكان يعرف بالبابين (على مقربة من المنيا) ، فكان النصر حليف شيركوه الذى رأى بعد ذلك أن يسير إلى الإسكندرية ، فدخلها من غير مقاومة وعين ابن أخيه صلاح الدين والياً عليها.

أما قوات الفرنجة والمصريين فعادت إلى القاهرة بعد واقعة البابين، ثم زحفت إلى الإسكندرية حيث قامت بحصارها براً، بينما كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحراً، ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار، فأسرع أسد الدين شيركوه إلى نجدته. ولم يلبث المصريون والفرنجة أن أرسلوا إليه يطلبون الصلح ، فأجاب طلبهم واشترط ألا يقيم الفرنجة فى البلاد المصرية ثم عاد إلى دمشق.

على أن جميع قوات الفرنجة لم تغادر مصر تنفيذاً لهذا الصلح، بل عقدت مع شاور معاهدة ، كان من أهم شروطها : أن يكون لهم بالقاهرة شحنة (صليبية) ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن إنفاذ عسكر إليهم» . كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف

(١) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٤٧.

دينار سنوياً من دخل مصر(١) . وقد عقب أبو شامة(٢) على هذه الشروط بقوله: «هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور، وأما العاضد - صاحب مصر - فليس له من الأمر شئ، ولا يعلم شيئاً من ذلك، قد حكم عليه شاور وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة».

أدى دخول الفرنجة البلاد المصرية إلى اطلاعهم على ماوصلت إليه حالة هذه البلاد من الضعف والاضطراب مما جعلهم يطمعون فى الاستيلاء عليها، وذلك أنهم قد تحكموا فى شئون أهلها دون أن يقف فى وجههم أحد، وبعثوا إلى ملكهم أملريك يهونون عليه أمر امتلاك هذه البلاد، كما أن فئة من أعيان المصريين ممن كانوا يعادون شاور كاتبوا هذا الملك يحببون إليه القدوم إلى مصر - وكان قد وصل إليه من بعض أعوانه أسماء قراها ومقدار خراج كل منها -؛ وبذلك تمهد السبيل لقوات الفرنجة لغزو البلاد المصرية، فخرج أملريك على رأس الحملة التى جهزها فى أوائل سنة ٥٦٤هـ. ولما تقدم الفرنجة فى زحفهم صوب القاهرة، اضطر شاور إلى إخلاء الفسطاط، ثم أشعل النار فيها حتى لا يأوى إليها الصليبيون، وأمر سكانها بالنزوح إلى القاهرة، فحملوا معهم كل ما استطاعوا حمله من متاع وطعام وتركوا مدينتهم، فظلت النار مشتعلة بها أربعة وخمسين يوماً.

ولما شدد الفرنجة الحصار على القاهرة وضيقوا على أهلها حتى ضعفت قواهم ، رأى شاور بعد أن أيقن من عجزه عن مقاومتهم وضعفه عن ردهم على أعقابهم أن يعمد إلى إعمال الحيلة ، فأرسل إلى أملريك يذكره بما

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ص ١٥٢.

(٢) الروضتين فى أخبار الدولتين، ص ١٤٣.

بينهما من صلة المودة، ويبدى له خوفه من نور الدين، ويشير عليه بالصلح على أن يؤدى إليه ألف ألف دينار، فرحب أملريك بما عرضه عليه شاور واستقر الرأى بينهما على أن يعجل بدفع مائة ألف دينار لملك الفرنجة، ويؤخر الباقى خشية أن يسارع نور الدين إلى الاستيلاء على البلاد المصرية.

على أن شاور مالبث أن خدع الفرنجة، فأرسل إلى نور الدين يطلب النجدة، كما بعث إليه أيضاً الخليفة العاضد لدين الله يستنجد به، وتعهد بأن ينزل له عن ثلث بلاد مصر ، وأن يأذن لأسد الدين شيركوه بالإقامة عنده مع جنده ، وأن يكون إقطاع هؤلاء الجند خارجاً عن ثلث البلاد الذى أفرده لنور الدين[1].

لم تكد تصل هذه الرسائل إلى نور الدين حتى سارع إلى تجهيز قوة من حرسه الخاص ومن التركمان بقيادة أسد الدين شيركوه، وانضم إليهم عدد كبير من الأمراء وبعض أقاربه ومن بينهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومضوا جميعاً فى سيرهم نحو مصر. فلما وصلوا إلى القاهرة كان لا يزال أملريك معسكراً بقواته أمام أسوارها، فرحب بهم المصريون، واضطر أملريك – بعد أن اتضح له موقف المصريين منه – إلى الرحيل إلى فلسطين من غير حرب ولا قتال، ثم دخل أسد الدين شيركوه القاهرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ، فرحب به أهلها، واستقبله الخليفة العاضد وخلع عليه.

أيقن شاور بعد وصول حملة شيركوه الثالثة إلى القاهرة أن غايتها القضاء عليه والاستيلاء على مصر ، فظل يوجس خيفة منه ، وصار كل منهما يكيد لخصمه . ولما حاول شاور تدبير مؤامرة للقبض على شيركوه

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ص ١٥٨.

ومن معه من الأمراء، نهاه ابنه الكامل وقال: «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين» فقال شاور: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً»، فرد عليه الكامل بقوله: «صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج»، فعدل شاور عن عزمه، غير أن أسد الدين مالبث أن اتفق مع أصحابه على التخلص منه واضطلع بعضهم بتنفيذ هذه المؤامرة، فقبضوا عليه وقتلوه، ثم نهبت العامة دوره. وهكذا انتهت حياة ذلك الوزير الذى استبد بالسلطة فى أواخر العصر الفاطمي واستعان بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه، ولم يعد للصليبيين بعد مقتله من يحفزهم على التطلع إلى غزو مصر.

أصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلى فى البلاد بعد أن انتهى عهد شاور، فاتخذه العاضد وزيراً له، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وقلده جميع أمور الدولة، فجاء فى سجل تعيينه وزيراً: «وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته وتدبير مملكته، وحياطة ما وراء سرير خلافته، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة إمامته، وكفالة قضاة المسلمين، وهداية دعاة المؤمنين[1]...» كما أوصاه بأن يحسن معاملة رعاياه بقوله: «والرعايا قد علمت ما نالهم من إجحاف الجبايات وإسراف الجنايات، وتوالى عليهم من ضروب النكايات فأعمر أوطانهم التى أخربها الجور والأذى، وأنف من مواردهم الكدر والقذى، وأحسن حفظ وديعة الله منهم، وخفف الوطأة ما استطعت عنهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمناً».

استطاع أسد الدين شيركوه فى الفترة القصيرة التى قضاها فى الوزارة أن يقبض على زمام الأمور فى البلاد . كما وزع الإقطاعات على عساكره ،

(١) مجموع الوثائق الفاطمية ص ١٧٢.

وأعاد أهالى الفسطاط إلى بلدهم ، وأوصى أصحابه ألا يتركوا القاهرة، ثم توفى بعد أن ظل فى منصبه ما يقرب من ثلاثة أشهر ، فتنازع أمراء نور الدين الذين كانوا معه فى طلب الرياسة والوزارة، غير أن العاضد مال إلى تولية صلاح الدين يوسف بن أيوب لصغر سنه وضعفه عنهم، فاستدعاه وولاه الوزارة.

شرع صلاح الدين – بعد أن ولى وزارة العاضد الفاطمى – فى استمالة قلوب الناس إليه. وكان لبذله الأموال عليهم أثره فى اكتساب محبتهم مما ساعد على تقوية مركزه فى مصر، بينما أخذت سلطة العاضد فى الضعف، فقد أمر صلاح الدين بذكر اسم نور الدين فى الخطبة بعد الخليفة الفاطمى وأقطع أصحابه البلاد، وأسند إليهم بعض المناصب، وبذلك كشف القناع عن حقيقة نواياه إزاء الخلافة الفاطمية وتجلى للناس حرصه على القضاء عليها.

ولما ثقلت وطأة صلاح الدين على أهل القصر الفاطمى وتجلى استبداده بأمور الدولة وإضعافه جانب الخلافة، حنق عليه رجال القصر ودبروا المكائد للتخلص منه، وكان يتزعمهم جوهر مؤتمن الخلافة. وقد اتفق رأيهم على مكاتبة الفرنجة ودعوتهم إلى مصر ، فإذا ما خرج صلاح الدين إلى لقائهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة وانضموا إلى الفرنجة فى محاربته والقضاء عليه(١).

على أن صلاح الدين مالبث أن وقف على مادبره له أعداؤه: فشدد الرقابة على مؤتمن الخلافة ، وأرسل إليه جماعة من أصحابه تمكنوا من اغتياله فى أواخر سنة ٥٦٤هـ (٢) ، فأدى ذلك إلى ثورة جند الخليفة

(١) المقريزى: خطط جـ٢ ص ٢.

(٢) المقريزى: خطط جـ٢ ص ٣.

وأكثرهم من السودانيين - وكانوا يزيدون على خمسين ألفاً. وقد دار بينهم وبين قوات صلاح الدين قتال عنيف فى المكان المعروف ببين القصرين بالقاهرة أحرق فيه كثير من المنازل، كما أحرق حيهم المعروف بالمنصورية، وحلت بهم الهزيمة، ومضت فلولهم إلى الجيزة(١). ومازال صلاح الدين يتتبعهم فى الصعيد إلى أن قضى على نفوذهم نهائياً سنة ٥٧٢هـ(٢).

لم تكن الصعاب التى واجهت مصر فى الفترة التى قضاها صلاح الدين وزيراً للعاضد مقصورة على الفتن التى أثارها رجال القصر الفاطمى وأتباعهم من الجند بل كان الفرنجة فى بيت المقدس يرقبون إذ ذاك ازدياد نفوذ نور الدين المتواصل فى مصر ويرون فيه خطراً يهدد كيانهم، ولذلك استقر رأى ملك بيت المقدس على الاستنجاد بملوك أوربا لإحباط أطماع نور الدين، لكن دعوته لم تلق استجابة منهم لانشغال غالبيتهم بمسائل تتعلق بدولهم، فلجأ إلى مانويل إمبراطور الدولة البيزنطية الذى رحب بمد يد المعونة إليه، ومن ثم توجهت قواتهم إلى دمياط يعاونهم أسطول بيزنطى مزود بالمؤن والعتاد الحربى، فوصلوا إليها فى صفر سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م). وكان الإمبراطور البيزنطى يرجو أن تحقق هذه الحملة أطماعه فى توسيع رقعة البلاد الداخلة فى دائرة نفوذه(٣).

رأى صلاح الدين بعد أن بلغه خبر الحملة التى أنفذها الفرنجة إلى دمياط أنه لابد من النهوض لصدهم، فأرسل جنده عن طريق النيل بقيادة ابن أخيه تقى الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود، وأمدهما بالسلاح والذخائر والمال. واضطر صلاح الدين للبقاء بالقاهرة خشية أن يقوم رجال القصر

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ١، ص ١٧٤ - ١٧٧.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٩٧.

(٣) حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، ص ١٣٤ - ١٣٦.

الفاطمى وجند السودان الناقمون عليه بتدبير المؤامرات ضده. وبعث إلى نور الدين محمود يطلب منه النجدة، ويشكو إليه ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنجة، وإن سار إليها دبر له أعداؤه من المصريين المكائد، وبذلك يصبح الفرنجة أمامه والمصريون خلفه. فاستجاب نور الدين لدعوة صلاح الدين وبعث إليه الإمداد، وكان كلما جهز فرقة من الجند أرسلها إليه[١]، كما حرص الخليفة العاضد على إعانته بالمال طوال مدة حصار الفرنجة لدمياط. وقد نوه صلاح الدين بمعاونة العاضد له بقوله:[٢] «ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى ما أرسله إلى من الثياب وغيرها».

لم يتيسر للمغيرين على دمياط من الفرنجة وحلفائهم البيزنطيين تحقيق غرضهم، فقد تسرب القلق إلى نفوسهم من جراء ما عانوه فى سبيل تموين قواتهم، كما وقع الخلف بين قوادهم على الخطة التى يتبعونها لمهاجمة هذه المدينة، وفضلا عن ذلك، فإن ما بلغهم عن قيام نور الدين بمهاجمة حصن الكرك وغيره من النواحى التى فى أيديهم حملهم على الإسراع فى رفع الحصار عن المدينة والرجوع بجيوشهم إلى بلادهم فى ربيع الأول سنة ٥٦٥هـ وبذلك فشلت هذه الحملة فى غزو دمياط والاستيلاء على مصر[٣].

كان لإحباط خطة الفرنجة والبيزنطيين فى مهاجمة دمياط ورحيلهم إلى بلادهم منهزمين أثره البالغ فى توطيد سلطة صلاح الدين فى مصر. فقد اعتبره المصريون حامياً لهم واتفقوا معه على محاربة الفرنجة أعدائهم جميعاً، كما أن صلاح الدين حرصاً منه على تدعيم مركزه، رأى أن يحيط نفسه بأهل بيته،

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص ١٨١.

(٢) المقريزى: خطط، جـ١ ص ٢١٥.

(٣) حسن حبشى: نور الدين والصليبيون، ص ١٣٧ - ١٤٠.

فطلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه، فوصلوا إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)، ومالبث أن أسند إليهم بعض المناصب الهامة، فجعل أباه على بيت المال وأقطع إخوته بعض الأراضى[1].

لما أيقن صلاح الدين أن سلطته قد استقرت، وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي في مصر، فأنشأ سنة ٥٦٦هـ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي وأخرى لتدريس المذهب المالكي، وعزل قضاة الشيعة، وعين صدر الدين عبدالملك بن درباس قاضياً للقضاة في جميع أنحاء البلاد المصرية، فأناب عنه في سائر البلاد قضاة شافعية، فاستعاد بذلك المذهب السني قوته، وأخذ المذهب الإسماعيلي في الاختفاء تدريجياً حتى لم يبق له أنصار في مصر[2].

كان لسياسة صلاح الدين التي تنطوي على إضعاف المذهب الإسماعيلي أثرها في زوال الخلافة الفاطمية، فقد انهارت منذ ذلك الوقت سلطة الخليفة العاضد ، وكثر القول من صلاح الدين وأصحابه في ذمه ، كما تحدثوا بخلعه وإقامة الدعوة العباسية . لكن صلاح الدين رغم استبداده بأمور مصر لم يسارع إلى إقامة الخطبة للمستضئ بنور الله العباسي ، بل أعرض في بادئ الأمر عن تنفيذ رغبة نور الدين الذي أرسل إليه يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل الخليفة الفاطمي ، واعتذر بتخوفه من أن يثير هذا العمل غضب المصريين ، غير أن نور الدين أبى قبول هذا العذر ، وبعث إليه يلزمه بقطع الخطبة للخليفة العاضد ، فرأى صلاح الدين أن يشاور الأمراء في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدل الخليفة الفاطمي فوافقه بعضهم وأظهروا استعدادهم لمعاونته على تحقيق هذه الرغبة، وخشي آخرون من الإقدام على ذلك وكان قد وفد إلى القاهرة رجل فارسي يعرف بالأمير

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢٤ - ٢٥، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) المقريزي: خطط جـ١ ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

العالم، فلما رأى تردد صلاح الدين فى إقامة الخطبة للخليفة العباسى، أبدى حرصه على القيام بنفسه بالدعاء لهذا الخليفة، فصعد المنبر فى أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ قبل الخطيب، ودعا للمستضئ فلم يعارضه أحد، وفى الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بإسقاط اسم العاضد من الخطبة وذكر اسم الخليفة العباسى بدلا منه. وكان العاضد إذ ذاك مريضاً، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، ثم توفى فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ[١]. وقيل إنه علم قبل وفاته بحذف اسمه من الخطبة، فاعتل وتوفى بعد خمسة أيام[٢].

وهكذا سقطت الدولة الفاطمية الشيعية، وظلت الخلافة العباسية قائمة على الرغم مما أصابها من الضعف والانحلال. ويرجع السبب فى ذلك إلى رغبة المسلمين الاحتفاظ بها لاعتقادهم أنها نظام لابد منه لصلاح العالم الإسلامى واستقامة شؤونه.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص ٢٠٠ – ٢٠١.

(٢) أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١ ص ١٩٦.

الباب السادس

النظم والحضارة في العصر الفاطمي بمصر

١- نظم الحكم والإدارة.

٢- الحالة الاقتصادية.

٣- مظاهر الحياة الاجتماعية.

٤- الحياة الثقافية.

الباب السادس
النظم والحضارة فى العصر الفاطمى بمصر

١- نظم الحكم والإدارة

تطلب نظام الوراثة عند الإسماعيلية وهو الذى أخذ به الفاطميون منذ نشأة دولتهم أن تنتقل الإمامة من الأب إلى الابن عن طريق التعيين بالنص. وحرص الفاطميون على اتباع هذا النظام منذ أقاموا دولتهم، ولكن بعض الأحداث حملتهم على الخروج عليه ، فحاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه أبا الحسن عليا، الذى ولى الخلافة من بعده باسم الظاهر من ولاية العهد ، ويعهد بها لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس ، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وخلفه ابنه الظاهر. كذلك خولف هذا النظام بعد وفاة الخليفة الآمر حين ولى الخلافة بعده عمه الحافظ ، كما أنه بعد وفاة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله(١).

وكان الخليفة الفاطمى يعين ولى عهده قبل وفاته ولم يكن له الحق فى أن يعهد بالإمامة من بعده لأكثر من واحد، وهذا ما يميز ولاية العهد عند الفاطميين عن ولاية العهد عند الأمويين والعباسيين، فكان الأمويون والعباسيون من بعدهم يعهدون بالخلافة لأكثر من واحد. وأسرف العباسيون فى تعيين ولاة العهد. فعهدوا بالخلافة من بعدهم إلى ثلاثة أمراء مما أدى إلى قيام المنافسة بين أفراد البيت المالك، كما أدى إلى ضعف كل من البيتين الأموى والعباسى فى النهاية.

---

(١) انظر: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٢٠ - ٢١.

أحاط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس، ويتجلى لنا ذلك من حديث الداعى هبة الله الشيرازى الذى وصف فيه مقابلته الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى مجلس الخلافة بالقاهرة، فقال: «فلم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعة، وغلبتنى العبرة، وتمثل فى نفسى أننى بين رسول الله وأمير المؤمنين – صلى الله عليهما – ماثل، وبوجهى إلى وجهيهما مقابل، واجتهدت عند وقوعى إلى الأرض ساجداً لولى السجود ومستحقه، أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه، فوجدته بعجمة المهابة معقولا، وعن مزية الخطابة معزولا.. ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ولا يهتدى لقول، وكلما استطرد الحاضرون منى كلاماً ازددت إعجاباً.. وهو – خلد الله ملكه – يقول دعوه يهدأ ويستأنس، ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عينى وصدرى، وودعت وخرجت[١]...».

وكان الخلفاء الفاطميون يرون فى تقديس الناس لهم إعلاء لشأنهم واعتبروا أنفسهم هداة لهم. وكانوا يلقبون أنفسهم بألقاب كثيرة منها: الخليفة الفاطمى أو العلوى أو أمير المؤمنين. وكان السنيون يطلقون عليهم العبيديين نسبة إلى عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، كما أطلق عليهم الفاطميون نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء [٢].

أما عن الوزارة فى عهد الفاطميين ، فإن جوهراً الصقلى لما فتح مصر أقر الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات فى منصبه حتى لا يحدث عزله اضطراباً فى شئون ولاية مصر ، ولم يقدم على عزل أحد من الموظفين السنيين وإحلال المغاربة وغيرهم من أنصار الفاطميين محلهم لأنه لم يوجد من

(١) سيرة المؤيد، ص ٨٥ – ٨٦.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢١٦

المغاربة فى أول الأمر خبير بالشئون الإدارية فى مصر.

على أن جوهراً ما لبث أن أشرك مع كل موظف مصرى آخر مغربياً حتى إذا ما تدرب أنصار الفاطميين على الإدارة انفردوا بالوظائف. كذلك عمل جوهر على إضعاف سلطة الوزير جعفر بن الفرات بأن عين له خادماً يلازمه فى داره ويسير فى ركابه ليكون عيناً عليه[1]. وساء الوزير ابن الفرات أن يرى نفسه فى هذه الحال. لذلك انتهز فرصة قدوم الخليفة المعز إلى مصر واعتذر له عن البقاء فى منصب الوزارة، فأظهر له الخليفة رغبته فى ضرورة بقائه فى البلاد المصرية بعد اعتزاله منصبه ليستأنس برأيه فى مهام الأمور، فأجابه إلى ذلك[2].

ثم عهد الخليفة المعز إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن المغربى فى إدارة شئون الدولة الفاطمية المدنية والحربية، وقلدهما أمور الدولة التى يضطلع بها الوزراء. على أن ابن كلس لم يسند إليه منصب الوزارة، ويلقب بلقب وزير إلا فى عهد الخليفة العزيز بالله.

كانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ - ٤٦٥هـ) وزارة تنفيذ لأن الخلفاء كانوا على جانب كبير من القوة بحيث استأثروا بإدارة شئون الدولة[3]. وحرص الخلفاء الفاطميون على اختيار وزرائهم من المختصين بتدبير الأموال، كما كان لحكام الولايات وكبار موظفى الدولة على اختلاف درجاتهم الحق فى تقلد منصب الوزارة إذا توافرت عندهم الكفاية اللازمة لهذا المنصب، وبلغ من تسامح الفاطميين أن عهدوا إلى بعض ذوى الشأن من أهل الذمة بتولية الوزارة[3].

لم تظهر تسمية الوزير وزيراً بوضوح إلا فى أيام الخليفة العزيز مع أن

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ١٦٨ - ١٨٠

(٢) انظر: كتاب «المعز لدين الله» ص ١٤٩.

(٣) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ص ٩٢، ٩٣.

هذا المنصب كان معروفاً فى عهد الطولونيين والإخشيديين. ومن وزرائه يعقوب بن كلس، وكان يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح، فيدخل عليه الناس بظلاماتهم، واتخذ فى قصره عدة دواوين، خص بعضها بالنظر فى شئون الجيش والمالية والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج، وعين لكل ديوان ما يحتاج إليه من الموظفين[1].

ضعف شأن الوزارة بعد وفاة يعقوب بن كلس وتحولت إلى ما يسمى الوساطة خشية ازدياد نفوذ الوزراء، ففى أوائل عهد الخليفة الحاكم بأمر الله عزل عيسى بن نسطورس لإسناده مناصب الدولة إلى أهل ملته من المسيحيين، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين الوساطة وتلقب بلقب أمين الدولة.

ومن أشهر رجال العصر الفاطمى الذين تقلدوا الوساطة والوزارة: أبوالحسن على بن جعفر بن فلاح الذى لقب وزير الوزراء ذا الرياستين، وأبو القاسم على ابن أحمد الجرجرائى الذى تقلد بعض المناصب العليا فى عهد الحاكم، ثم أسندت إليه الوساطة فى أوائل خلافة الظاهر الفاطمى، لكنه لم يل الوزارة فى سنة ٤١٨هـ وظل شاغلا هذا المنصب إلى أن توفى الخليفة الظاهر فأقره الخليفة المستنصر فى منصبه، فلما توفى سنة ٤٣٦هـ، خلفه فى الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى[2] غير أن هذا الوزير لم يتمتع بما تمتع به غيره من نفوذ بسبب اتساع سلطة أبى سعد التسترى اليهودى الذى تقرب من الخليفة المستنصر بالله وعظم شأنه فى عهده[3].

أصبحت الوزارة منذ أواخر عهد المستنصر بالله إلى نهاية العصر

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٧٢.

(٢) ابن منجب الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٣٥، ٣٨.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٧٦، ٢٧٧.

الفاطمى وزارة تفويض تقلدها كثير من أرباب السيوف بعد أن كانت وزارة تنفيذ أو وساطة يرجع من تقلدها إلى أمر الخليفة ونهيه، وبذلك تحولت الوزارة إلى سلطة استبدادية. ومن أشهر وزراء هذا العصر بدر الجمالى الذى كان والياً على عكا، ثم استدعاه المستنصر لينقذ عرش خلافته ويصلح الأمور فى مصر، فلما قدم إلى القاهرة فوض إليه جميع سلطاته، فقد جاء فى سجل توليته الوزارة[1]: «وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره». وبذلك أصبح بدر الجمالى صاحب الحل والعقد، له أن يولى كبار موظفى الدولة ويعزلهم.

ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين كثيراً فى العصر الفاطمى الثانى، بينما زادت سلطة الوزراء الذين استفحلت قوتهم وتضخمت ثروتهم، وأصبح فى أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم. وكان بعضهم يؤثر اختيار أحد أمراء البيت الفاطمى الضعاف حتى يكون ألعوبة فى أيديهم. وقد تجلت هذه الظاهرة فى عهد الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى الذى كان يتمتع بسلطة مطلقة، فأصبحت فى قبضة يده موارد الدولة الواسعة. وقد نقل الدواوين إلى داره التى بناها سنة ٥٠١هـ، كما جلب إليها كثيراً من الذخائر النفيسة.

وكان من ألقاب وزراء التفويض : أمير الجيوش ، وكافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين ، ثم أضيف إليها لقب ملك بعد أن ولى الوزارة رضوان بن ولخشى فى عهد الخليفة الحافظ ، وفى ذلك يقول المقريزى[2]: «وأول من لقب بالملك منهم مضافاً إلى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عندما وزر للحافظ لدين الله ، فقيل له : السيد الأجل الملك الأفضل ،

(١) المقريزى: خطط، جـ١ ص ٤٤.

(٢) خطط، جـ٢ ص ٣٠٥.

وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة، وفعل ذلك من بعده، فتلقب طلائع بن رزيك بالملك المنصور، كما تلقب صلاح الدين بالملك الناصر.

* * *

← كانت مصر تنقسم فى العصر الفاطمى إلى أربع ولايات أو أقاليم كبيرة وهى: ولاية قوص ويحكم متوليها جميع بلاد الصعيد، وولاية الشرقية وتشمل على وجه التقريب الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط. وولاية الغربية وتشمل جميع البلاد الواقعة بين فرعى رشيد ودمياط من الشمال إلى الجنوب. أما الولاية الرابعة فهى ولاية الإسكندرية، ويضاف إليها البحيرة[١]. وقد منحت الحكومة الفاطمية كل وال من ولاة هذه الأقاليم الأربعة الحرية فى تعيين العمال على المدن والنواحى والقرى الداخلة فى نطاق ولايته، كما أجازت لهم العناية بمرافق إقليمهم دون الرجوع إليها[٢].

وكان على القاهرة وال، كما تولى على الفسطاط وال آخر، وتمتع كل منهما بمركز ممتاز عند الخليفة. غير أن مرتبة والى القاهرة كانت أعلى من مرتبة والى الفسطاط، وكذلك كان لكل من تنيس وعيذاب وال يحكمهما لأهميتهما التجارية.

أما شئون الإدارة فى العصر الفاطمى بمصر، فكان يشرف عليها عدة دواوين، نذكر من بينها: ديوان الإنشاء، ودواوين الإدارة المالية التى تقوم بجباية الأموال وإنفاقها، ودواوين الإدارة المحلية التى تحكم الولايات وتنقسم الدواوين الرئيسية بدورها إلى عدة دواوين، يختص كل منها بعمل معين.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٨ ص ٤٩٧ – ٤٩٨.

(٢) انظر: كتاب «المعز لدين الله» ص ١٦٠ – ١٦١.

كان الموظفون فى العهد الفاطمى يتقاضون الرواتب الكبيرة ويمنحون الملابس والهدايا الثمينة فى الأعياد والمواسم؛ وأصبحوا بفضل هذه الرواتب والمنح فى رغد من العيش مما سهل عليهم القيام بواجباتهم على أحسن وجه، فلم يألوا جهداً فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ودفع إغارات الأعداء عنها.

وحرص الفاطميون على أن يكون موظفو الإدارة من بين ذوى الخبرة كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية؛ وأحسن مثل لذلك ابن منجب الصير فى الذى عمل قبيل توليته ديوان الإنشاء - فى عهد الخليفة الآمر - فى ديوان المكاتبات ودواوين الجيش والمالية. وكانت هذه الطريقة تهيئ لأرباب الوظائف قدراً كبيراً من الثقافة الإدارية[1].

كان ديوان الإنشاء أهم دواوين الإدارة فى عهد الفاطميين وهو يلى الوزارة فى الأهمية؛ وأطلق عليه ابن منجب الصيرفى «ديوان الرسائل» وغلبت عليه التسمية الأولى. وازدادت أهمية ديوان الإنشاء فى ذلك العهد عما كان عليه فى عهد الطولونيين والإخشيديين، لأن مصر أصبحت مركزاً للخلافة الفاطمية التى امتد نفوذها من بلاد المغرب إلى بلاد الشام وجزيرة العرب، وصارت فى حاجة للقيام بدعاية واسعة لخلفائها مما يتطلب من هذا الديوان مجهوداً كبيراً. وكان يتولى شئون هذا الديوان كاتب يقال له صاحب ديوان الإنشاء ويطلق عليه أيضاً صاحب الدست الشريف لكتابته على الدست، ومن واجباته تسلم المكاتبات الواردة ثم عرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها. وكان صاحب الإنشاء يتقاضى راتباً شهرياً قدره مائة وخمسون ديناراً، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين دينارا[2].

ويلى صاحب الإنشاء فى الرتبة صاحب القلم الدقيق الذى كان يوقع على

---

(١) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، جـ١ ص ٩٥ - ٩٦، ١٠٢.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٢، ص ٤٩٠.

المظالم ويجالس الخليفة. وكان يتقاضى مائة دينار كل شهر، ويلى صاحب القلم الدقيق فى الرتبة صاحب القلم الجليل، ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق وعرضها على الخليفة(١).

وفى بعض الأحيان كان يتولى صاحب ديوان الانشاء إدارة البريد، فيذكر المقريزى(٢) أن الخليفة الحاكم بأمر الله قلد الحسين بن جوهر البريد والإنشاء فى شوال سنة ٣٨٦هـ. واهتم الفاطميون بالبريد اهتماماً كبيراً، وصار أصحابه يعرفون فى أيامهم بأصحاب الأخبار. وكانوا يوافونهم بكل ما يصل إليهم من الأحداث، وبذلك لم يعد يخفى عليهم شئ من أمور دولتهم.

وكانت الشرطة من النظم الإدارية الهامة التى عنى بها الفاطميون، وتختص بحفظ النظام واستتباب الأمن، ويتولى رئيسها الذى يعرف بصاحب الشرطة تنفيذ أحكام القضاة. وكان حكام الولايات المصرية يقومون بأعمال صاحب الشرطة فى ولاياتهم ويعاونهم جماعة من الجند.

ومما تجدر ملاحظته أن الشرطة قسمت فى العصر الفاطمى بمصر إلى قسمين وهما، الشرطة العليا فى القاهرة، والشرطة السفلى فى مصر (الفسطاط والعسكر). وكان هذا التقسيم معمولا به منذ العصر الطولونى، غير أن الشرطة العليا كانت فى مدينة العسكر، والشرطة السفلى كانت فى الفسطاط، فلما تأسست مدينة القاهرة وأصبحت العاصمة، اقتضى ذلك نقل الشرطة العليا إليها، وبقيت الشرطة السفلى فى الفسطاط.

* * *

كذلك كان للتنظيم الحربى نصيب موفور من عناية الفاطميين، فقد رأوا أنهم بحاجة إلى جيش قوى يحمى دولتهم ويساعدهم على امتداد نفوذهم فى أراضى الدولة الإسلامية، كما اهتموا بإنشاء أسطول لصد الأعداء الذين يغيرون على دولتهم من ناحية البحر وليكون عونا لقواتهم البرية.

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٩١ - ٤٩٢.

(٢) خطط: جـ٢ ص ١٤.

وقد سار الفاطميون فى تحقيق هذه السياسة على ما كان سائداً فى ذلك الوقت، فكونوا جيشهم من عدة أجناس لم يكن بعضها معروفاً فى مصر، وكان المعز منذ استقر له الأمر فى البلاد المصرية يعتمد على المغاربة – وهم يكونون معظم جيشه – ويشملون عدة طوائف من البربر، نذكر منها، الكتامية والباطلية[١] والمصامدة والجودرية[٢] . ولما ولى العزيز بالله الخلافة، استخدم الأتراك والديلم، ثم ظهر عنصر السودان فى الجيش فى عهد الحاكم بأمر الله، وتضاعف عدده فى خلافة المستنصر بالله حتى بلغ عدد السودانيين فى الجيش خمسين ألفاً، وظل هذا العنصر يكون فرقة كبيرة فى الجيش الفاطمى حتى زالت الدولة الفاطمية. وقد أدى تعدد العناصر فى الجيش إلى قيام التنافس والتشاحن بين طوائف الجند، وليس أدل على ذلك مما حدث فى عهد المستنصر حيث قام خلاف بين طائفتى الأتراك والسودانيين كان له أسوأ الأثر فى حالة مصر الداخلية.

وكان فى الجيش الفاطمى أيضاً عناصر أجنبية، وفدت إلى مصر مع بعض الذين تقلدوا الوزارة، منها جند الأرمن، وقد أحضرهم بدر الجمالى من بلاد الشام، كما عمل بهرام الأرمنى أثناء توليه الوزارة على استجلاب عدد كبير منهم إلى مصر. كذلك أتى الأكراد مع أسد الدين شير كوه وصلاح الدين يوسف ابن أيوب فى عهد الخليفة العاضد.

وكان من بين طوائف الجيش فرق من الجند تنسب إلى الخلفاء أو الوزراء، فمن طوائف الخلفاء: الآمرية والحافظية والظافرية والعاضدية. ومن طوائف الوزراء: الوزيرية وتنسب إلى الوزير يعقوب بن كلس . وقد سمح له الخليفة العزيز بتكوين حرس خاص به. وهناك طوائف أخرى ظهرت فى العصر الفاطمى الثانى، منها الجيوشية نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى والأفضلية

---

(١) انظر: المقريزى: خطط جـ٢ ص ٨.

(٢) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم ، جـ١ ص ١٩٥ – ١٩٦

نسبة إلى ابنه الأفضل، والبرقية وهم جماعة من أهل برقة. وقد أنشأ الوزير طلائع بن رزيك فرقة منهم وجعل ضرغام مقدمهم[١].

لم يعمل الفاطميون على إشراك المصريين فى جيشهم، غير أنه فى أواخر العصر الفاطمي حين أصبحت مصر مهددة من جانب الصليبيين اشترك المصريون فى الدفاع عن بلادهم، فأصبح الجيش الفاطمى يتكون من جنود وأمراء مصريين فضلا عن الطوائف الفاطمية الأخرى.

اتخذ الفاطميون للجيش أحياء خاصة، فأنزل جوهر الصقلى عساكر المعز – وكانت تتكون من عدة عناصر – فى مواضع بالقاهرة عرفت بالحارات، وخصص لكل طائفة حارة، يقيم فيها الجند وأسرهم، وبها دكاكين وأسواق ويرجع السبب فى اتخاذ أماكن معينة لإقامة الجند إلى منعهم من مضايقة سكان القاهرة.

ويتألف الجيش الفاطمى من الأمراء وهم القادة، وطوائف الجند. ويتميز الأمراء بعضهم عن بعض بعلامات فى الأعياد والمواكب الرسمية بحسب مراتبهم، فالأمراء الكبار يحملون حول أعناقهم أطواق الذهب، ويقود كل منهم ألف جندى. وهناك فريق آخر من الأمراء يعرفون بأصحاب القضب، يحملون فى أيديهم قضب الفضة وهى رماح فضية، ويقود كل منهم مائة جندى[٢].

وكان الفاطميون لا يألون جهداً فى سبيل تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج إليه من أسلحة، فأنشأوا خزانة السلاح. وكانت تحتوى على خوذات وسيوف ورماح وسهام ودروع وأقواس مختلفة الأشكال. وهناك خزائن تمد الجيش بمعداته، منها خزانة الخيام، وبها عدة أنواع من خيام الجند، وخزائن لصناعة

---

(١) انظر: خطط جـ٢ ص ٥، ١٢.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٠.

السروج اللازمة للدواب فى الحرب[١]. ويذكر المقريزى[٢] أن الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى لما فكر فى الرحيل إلى المشرق ومهاجمة بغداد، أعد فى هذه الخزائن سروجاً مجوفة ومبطنة بصفائح من قصدير يوضع بداخلها الماء ليشرب منها الفارس. وكان كل سرج منها يسع سبعة أرطال ماء.

وقد أظهر الجند الفاطمى مهارة فى استخدام أسلحة الحرب التى شاع استعمالها إذ ذاك كالحراب والسيوف وآلات الحرب الضخمة كالمجانيق التى ترمى الأسوار بالحجارة، كما زود الجيش بفرقة من النفاطين[٣] الذين يقومون بإعداد القوارير المملوءة بالنفط ورميها على قوات الأعداء لتحول دون تقدمها.

كان هناك دواوين لإعداد الجيش وتجهيزه وتنظيم النفقة عليه، ويعمل فيها موظفون مدنيون وهى: ديوان الجيش وديوان الرواتب وديوان الإقطاع. فيشرف ديوان الجيش على الجنود وإعدادهم، ويختص ديوان الرواتب تسجيل عطاء الجنود وجميع موظفى الدولة. وقد طرأ على العطاء عدة تغييرات فى عهد الدولة الفاطمية. فكان يبلغ عطاء الجندى عشرين ديناراً فى كل شهر. أما ديوان الإقطاع، فكان مختصاً بما هو مقطع للأجناد ، ويتولى إثبات الإقطاعات والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال . ولم تكن هذه الإقطاع والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال من الكثرة كما كانت فى عهد الأيوبيين والمماليك فى مصر.

أما فيما يتعلق بالقوات البحرية، فقد اتخذ الفاطميون مراكز لإنشاء السفن الحربية فى مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) وجزيرة الروضة التى عرفت

(١) انظر: المقريزى: خطط جـ١ ص ٤١٧ - ٤٢٠.

(٢) خطط: جـ١ ص ٤١٨.

(٣) انظر: المقريزى: خطط جـ٢ ص ٣.

فى العصر الفاطمى باسم جزيرة مصر، والمقس التى أنشأ بها المعز لدين الله داراً لصناعة السفن، والإسكندرية ودمياط.

وبذلت الحكومة الفاطمية جهدها للحصول على الخشب الذى يصلح لبناء السفن الحربية، وكان يؤتى ببعضها من مناطق الغابات المغروسة فى كثير من جهات الوجه القبلى. وقد احتكر الفاطميون أجود أنواع الخشب برسم الأسطول والمراكب الديوانية. على أن إنتاج البلاد من الخشب لم يكن كافياً، كما أن بعض أنواعه لا تمتاز بالصلابة اللازمة لذلك كانوا يستوردون الخشب من تجار البندقية، وكثيراً ما تدخل الأباطرة البيزنطيون لمنع المدن الإيطالية من تزويد مصر بما تحتاج إليه من هذه المادة.

وقد تنوعت السفن الحربية التى يتكون منها الأسطول فى العصر الفاطمى فمنها: الشوانى (جمع شينى أو شونى)[1] التى امتازت بأبراج الدفاع والهجوم واحتوت على أهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء العذب. ومن سفن الأسطول أيضاً: الحراريق (جمع حراقة) وهى من المراكب الحربية الكبيرة المخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط الذى يرمى بالمجانيق أو بالسهام. كذلك كان من سفن الأسطول الطرائد (جمع طريدة)، وتستخدم فى نقل الخيول، والشلنديات وهى مراكب مسطحة يستعان بها فى حمل العتاد والجند، والحمالات وتستخدم فى حمل الذخيرة[2].

ويشرف على الأسطول عشرة قواد بحريين، يختار من بينهم رئيس يعرف بأمير الأسطول، وتحمل كل سفينة حربية عدداً من المقاتلة عدا البحارة. وهناك أشخاص معروفون عند ديوان الجهاد يسمون «النقباء» يقومون بجمع المقاتلة من أنحاء البلاد إذا ما تأهب الأسطول للخروج. ولم يكن أحد يجبر على

---

(١) المقريزى: خطط جـ١ ص جـ ٤٢٨

(٢) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم جـ١ ص ٢٢١ – ٢٢٣.

العمل فى السفن الحربية. وكان الناس يقدرون أعمال البحارة فى الأسطول ويسمونهم «المجاهدين فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله[١]».

وكان للأسطول ديوان يعرف بديوان الجهاد، يقوم بالإشراف على بناء السفن وتجهيزها بالمعدات الحربية ودفع مرتبات الرجال العاملين فيها. أما عن نفقات الأسطول، فقد خصصت له الحكومة الفاطمية ميزانية ضخمة من مستغلات الاقطاعات المحبوسة. ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين حتى زال حكمهم من مصر سنة ٥٦٧هـ.

وكان من مظاهر اهتمام الفاطميين بقواتهم البرية والبحرية، الاحتفال بتوديعها عند تأهبها للرحيل لمحاربة الأعداء، فإذا ما خرج الجيش الفاطمى جلس الخليفة بمنظرة باب الفتوح وعلى الأخص حين تكون الحملة متجهة إلى بلاد الشام، وفى هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدى الخليفة فيخلع عليه خلعا مزركشة بالذهب، ثم يأمر الجيش بالمسير[٢]، أما فى حالة خروج الأسطول، فيحضر الخليفة بصحبة الوزير والأعيان إلى منظرة المقس حيث يكون مقدم الأسطول فى انتظاره، وبعد أن يستعرض الخليفة المراكب الحربية يأذن للمقدم بالمثول بين يديه فيخلع عليه[٣]، ثم يودعه ويبدأ الأسطول فى المسير. وعند عودة الأسطول مظفراً يقام احتفال كالذى أقيم عند رحيله، فيحضر الخليفة بصحبة رجال الدولة ليشهد أسطوله الذى أحرز النصر[٤].

(١) المقريزى: جـ٢ ص ١٩٤.

(٢) المقريزى: خطط جـ١ ص٤٨١ - ٤٨٢، حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص ٢٢٣.

(٣) المقريزى: خطط جـ١، ص ٤٨، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٢٣ - ٥٢٤.

(٤) المقريزى: خطط، جـ٢ ص ١٩٣.

٢- الحالة الاقتصادية

الزراعة: اهتم الفاطميون بالزراعة على اعتبار أنها من أهم مصادر الثروة فى مصر، وكانت زراعة القمح تشغل الجزء الأكبر من الأراضى المصرية الخصبة التربة \ وعلى الأخص أنحاء الدلتا والوجه القبلى - لأنه الغذاء الرئيسى لأهل البلاد. أما الذرة فلم تكن معروفة فى مصر فى ذلك العهد[١].

وكان الكتان يزرع فى الأراضى المنخفضة التى تظل مغمورة بالمياه مدة طويلة. لذلك انتشرت زراعته فى الدلتا والفيوم. أما قصب السكر، فقد توسع المصريون فى زراعته فى العصر الفاطمى. وليس أدل على ذلك من قول ناصر خسرو الذى زار مصر حوالى سنة ٤٤٠هـ، «وتنتج مصر عسلا كثيراً وسكراً».

وكانت مصر تشتهر أيضاً بإنتاج أنواع مختلفة من الفواكه، ومن أهمها: الكروم، وتزرع فى نواحى مريوط والجيزة والفيوم وقليوب، وبعض جهات الوجهين القبلى والبحر ، وكذلك كان شجر النخيل مغروساً فى مختلف أنحاء القطر. وقد ذكر الأدفوى[٢] أنه كان يغرس بالصعيد أشجار النخيل على شاطئ النيل من الجانبين الشرقى والغربى، كما قال إن محصول إسنا من التمر بلغ فى إحدى السنوات أربعين ألف أردب ، وكانت أسوان أكثر نخيلا من غيرها من جهات الصعيد . وقد بلغ مجموع محصولها من التمر فى سنة واحدة ستة وثلاثين ألف أردب.

كذلك اهتمت الحكومة الفاطمية بغرس أشجار الغابات حتى يتسنى لها الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء أسطولها الحربى ومراكبها التجارية.

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢ ص ٢٦١.

(٢) كتاب «الطالع السعيد»، ص ١٠ - ١١.

ومن أشهر مناطق الغابات فى العصر الفاطمى: البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص.

وعلى الرغم من اهتمام الفاطميين بالرى والزراعة، فلم يخل عهدهم من أحداث أثرت فى الإنتاج الزراعى؛ فكثيراً ما نقص فيضان النيل عن المستوى العادى اللازم لرى الأراضى كما حدث سنة ٤٥٧هـ فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، حيث حل بالبلاد المصرية الشدة العظمى التى استمرت سبع سنوات، وكان من مظاهرها إهمال الزراعة وارتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية، وانتشار الوباء. وقد اقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والحروب الأهلية، فلما ولى بدر الجمالى الوزارة سنة ٤٦٦هـ قضى على المفسدين ووجه اهتمامه إلى إصلاح حال البلاد، فسادت الطمأنينة، وعنيت الحكومة الفاطمية بالترع والجسور، فزاد خراج مصر فى أيامه إلى أكثر من ثلاثة ملايين دينار[١].

وبلغ من عناية الفاطميين بالزراعة أن أنشأوا إدارة خاصة تشرف على أمورها، كما قاموا بمشروعات عظيمة لتنظيم رى الأراضى نخص بالذكر منها الخليج الذى أشرف على حفره أبو المنجا متولى ديوان جهات الدلتا الشرقية فى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى. وكان هذا الخليج يخرج من النيل لرى الأراضى الواقعة فى شرق فرع دمياط[٢].

وكان الفاطميون يعاملون الفلاحين معاملة تنطوى على التسامح والرعاية فلم يتركوا تقدير الخراج للمقطعين[٣]، بل حددوا مقداره ، كما حرصوا منذ امتد نفوذهم إلى مصر على عدم انتزاع الأراضى من أيدى أصحابها ، فقد جاء

(١) المقريزى: خطط جـ١، ص ١٠٠.

(٢) القلقشندى صبح الأعشى جـ٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٣) انظر: المقريزى: خطط جـ١ ص ٨٥.

فى عهد الأمان الذى أعطاه جوهر للمصريين: «ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل، الشامل الكامل، المتحدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم[١].» أما الأراضى التى تمتلكها الدولة، فأخذوا فى توزيع أجزاء منها على بعض أعوانهم والمختصين بهم. وكانت هذه الأراضى إذا نزلت عنها الحكومة صارت ملكا للمقطعين، ولكن إذا منحت الأرض لبعض الأفراد مقابل دفع مبلغ معين من المال تصبح إقطاع استغلال، وهذا النوع من الإقطاع كان يعطى للأجناد فى العصر الفاطمى.

وقد أدخل تعديل كبير على الإقطاعات فى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى، ذلك أنه لما شكا صغار المقطعين من قلة دخل إقطاعاتهم، على حين زاد المتحصل من إقطاعات الأمراء، أمر الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بحل جميع الإقطاعات وإعادة توزيعها، ولم يتعرض للأرض المملوكة، بل أبقاها فى أيدى ملاكها، ومن قوله فى هذا الشأن: «إن كل من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الإقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء أجره». وكان أكثر المقطعين فى ذلك الوقت من الأجناد، وقد سمح لهم الأفضل بن بدر الجمالى بأن يستغلوا إقطاعاتهم مدة ثلاثين سنة، وفى ذلك يقول المقريزى[٢]: وكتبت السجلات بأنها باقية فى أيديهم إلى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد».

وكان المقطع فى أواخر العصر الفاطمى يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان مقدارها دينار وخمسة قراريط ، وإذا انقطعت مدة الإقطاع ، عليه

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ١٥١ - ١٥٢.

(٢) خطط، جـ٢ ص ٨٣.

أن يرد الأرض المقطعـــة كما تسلمها ، ولا ينقل شيئاً من المنشآت التى أقيمت عليها(١).

الصناعة: استخدمت أساليب جديدة فى الصناعة المصرية فى العصر الفاطمى. وكان مما ساعد على تقدمها استقرار الأمور فى البلاد؛ فضلا عن حياة الترف والبذخ التى سادت المجتمع فى بعض المدن المصرية وبخاصة القاهرة والفسطاط، وكان لهذه الحياة تأثير كبير فى الإنتاج الصناعى، فأصبح عمل المصانع ليس مقصوراً على إمداد الجيش والأسطول الفاطمى بالسلاح والعتاد الحربى والملابس لطوائف الجند، بل تنوعت المنتجات لسد حاجة الخلفاء والوزراء ورجال الدولة وغيرهم.

وكان من الصناعات التى ازدهرت فى هذا العصر وتنوعت أصنافها: صناعة النسيج، إذ بلغت من الرقى فى مصر بحيث أصبح من اليسير صنع بعض الأقمشه الصوفية فامتازت بلدة القيس بعمل المنسوجات الصوفية، كما اشتهرت طحا - إحدى قرى الصعيد - بصناعة الثياب الصوفية الرفيعة(٢). وكانت بعض منسوجات الصعيد الصوفية تصدر إلى بلاد الفرس حيث عرفت هناك باسم «المصرى»(٣).

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين مركزاً هاماً لصناعة المنسوجات الحريرية. وقد أنشأ المعز لدين الله فيها دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف درجاتهم ، وكان يصنع بهذه الدار أيضاً كسوة الكعبة، والخلع التى يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة فى عيد الفطر حتى سمى هذا العيد بعيد الحلل ؛ كذلك عمل الفاطميون على النهوض بصناعة النسيج ، فأنشأوا عدة مصانع لإنتاج

---

(١) ابن مماتى: قوانين الدواوين ص ٢٩٧.

(٢) متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢ ص٢٩٦.

(٣) ناصر خسرو: كتاب «سفر نامه» ص ٧٠.

الأنواع الفاخرة. وكانت دار الديباج[١] منذ عهد الأفضل بن بدر الجمالى تنتج نوعاً من الحرير يعرف بالحرير الديباج. كما أن خزانة البنود التى بناها الخليفة الظاهر الفاطمى كان بها ثلاثة آلاف صانع لصنع أفخر أنواع الثياب[٢].

وكان لصناعة المنسوجات الكتانية شأن كبير فى مصر فى العصر الفاطمى، ويرجع السبب فى ذلك إلى وفرة الكتان فى منطقة دمياط وشرق الدلتا. ومن المراكز الرئيسية لهذه الصناعة: الفيوم وتنيس ودمياط وشطا ودبيق وينسب إلى هذه المدينة الأخيرة أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقى. وكان يصنع فى دبيق قماش ثقيل جيد النسيج، والعمائم الطويلة التى يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع[٣].

كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف فى العصر الفاطمى. وكانت الفسطاط من أكثر مراكز صناعة الزجاج. ومن البلاد التى اشتهرت بهذه الصناعة أيضاً الفيوم والأشمونين والإسكندرية؛ أما الخزف فقد أشار ناصر خسرو إلى أن المصريين كانوا يصنعون أنواعاً مختلفة منه. وبلغ من انتشار استعماله فى مصر أن البقالين وغيرهم من التجار كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف بدلا من الورق[٤].

التجارة : ازداد النشاط التجارى فى الفسطاط والقاهرة حيث يقيم الأعيان وأصحاب الإقطاعات ، ويكثر توافد الناس ؛ وكانت الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل وتوسطها بين الوجهين القبلى

(١) المقريزى: خطط جـ١، ص ٤٦٥.

(٢) المقريزى: خطط جـ١، ص ٤٣٢.

(١) المقريزى: خطط جـ١، ص ٢٢٦، متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢ ص ٢٩٦.

(٤) زكى حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٥٠ – ١٥١.

والبحرى، واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل، وفضلا عن ذلك فإنه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب.

ولم يؤثر إنشاء القاهرة على مركز الفسطاط التجارى؛ لأن المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون؛ كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط مما جعل الأسعار فى الفسطاط أقل منها فى حاضرة الخلافة الفاطمية[1].

وكانت الفسطاط تتمتع برخاء عظيم فى العصر الفاطمى، فكثرت بها المتاجر والأسواق ، كما كان يأتى إليها كثير من المراكب ، ويقول ناصر خسرو[2] فى وصفه لها إنه كانت بها الأسواق التى تباع فيها جميع أنواع السلع كسوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة، وبها أيضاً كثير من الخانات.

ومن مراكز التجارة الداخلية مدينة دمياط التى تميزت عن غيرها من المدن بازدهار التجارة والصناعة فيها، وأصبحت الميناء المصرى الوحيد فى الجزء الشرقى من البحر المتوسط، كذلك كانت مدينة قوص من مراكز التجارة الداخلية، فقامت بها الأسواق الكبيرة لوقوعها عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل. وكان لأسوان أيضاً شأن كبير فى التجارة الداخلية بسبب ورود تجارة النوبة والسودان إليها[3].

أما عن التجارة الخارجية ، فقد اتسع نطاقها مع البلاد الآسيوية والأوربية؛ فكانت مصر تستورد الكثير من غلات الهند والصين ، كما

(١) انظر: البراوى. حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٩٩.

(٢) كتاب «سفر نامه» ص ٥٨ – ٥٩.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٠٠ – ٦٠١

أن حاجتها إلى المواد الخام كالخشب والحديد حملتها على استيرادها من بعض الدول الأوربية. وصارت الإسكندرية من المراكز الرئيسية للتجارة، فتنتقل منها البضائع الآسيوية إلى أوربا وترد إليها السفن الأوروبية محملة بالسلع اللازمة للصناعة المصرية. ولم تكتف مصر بأن تكون طريقاً لمرور الغلات الآسيوية، بل كان لديها ما تصدره إلى البلاد الأوربية كالنطرون والشب والمنسوجات على اختلاف أنواعها(١).

وقد قامت بين مصر والمدن الإيطالية وبخاصة جنوة والبندقية علاقات تجارية، فأخذت سفن البندقية تنقل الخشب والحديد إلى الموانى المصرية، كما أقدم تجار جنوة على التعامل مع الفاطميين فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر، وصارت سفنهم تبحر إلى الموانى المصرية. وقد استجاب بعض الخلفاء فى أواخر العصر الفاطمى لرغبة هؤلاء التجار فى الحصول على أمان لهم ولسفنهم تشجيعاً لهم على الاتجار مع بلادهم(٢).

وعلى الرغم من المنازعات السياسية بين مصر والدولة البيزنطية فإن العلاقات التجارية بينهما لم تنقطع، فكان البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصرية من مصانع تنيس ودمياط(٣)، كما أن مصر كانت تستورد بعض منتجات الدولة البيزنطية وبخاصة الغلال، وقد ذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو أن كثيراً من السلع التى رآها وأعجب بها فى أسواق مدينة مصر كانت من واردات بلاد الروم.

وقد أذنت الحكومة الفاطمية فى مصر للتجار الإيطاليين وغيرهم من الأوروبيين بإنشاء الفنادق الخاصة بهم . وكان لكل جالية أجنبية بالإسكندرية

(١) البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢١٣ - ٢٤٣.

(٢) Heyd: Hist. du Commerce du Levant au Moyen-Age, tome I, p.391.

(٣) Heyd: Hist. du Commerce du Levant au Moyen-Age, tome I, P.58

فندق وهو عبارة عن بناء يقيم فيه التجار الأوربيون ويحفظون فيه بضائعهم إما فى داخل المدينة أو خارجها. وكانوا عادة يختارون أحد أفراد الجالية للإشراف على تنظيم الإقامة فى الفندق.

كذلك أقيمت فى مصر فى ذلك العصر الوكالات وهى كالفنادق(١)؛ وينزل بها التجار القادمون من بلاد الشرق الإسلامى؛ فيذكر ابن ميسر(٢) أن الوزير المأمون البطائحى أمر سنة ٥١٦هـ ببناء وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار.

وكان هناك بجانب هذه المنشآت التى أعدت للتجار أبنية أخرى أطلق عليها اسم القياسر(٣). وكانت القيسارية مجموعة من المبانى العامة، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن. وكان فى بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين ويعلوها رباع يقيم فيها الصناع والتجار بأجر(٤)، وقد أنشئ بمصر فى العصر الفاطمى عدد قليل من هذه القياسر(٥).

* * *

أما عن نظم المعاملات التجارية فلم تكن موحدة فى الدولة الإسلامية، ففى مصر والشام شاع استعمال الدنانير الذهبية؛ أما فى بلاد الفرس والعراق، فعملتها الجارية الدراهم الفضية، واستمر الدينار فى مصر قاعدة التعامل حتى بعد الفتح الفاطمى، غير أن جوهر القائد بادر إلى سبك دنانير جديدة أطلق عليها المعزية، وأبقى التعامل بالدينار الراضى (نسبة إلى الخليفة العباسى الراضى).

---

(١) المقريزى: خطط جـ٢ ص ٩٣.

(٢) تاريخ مصر، ص ٦٢.

(٣) انظر: المقريزى. خصص جـ٢ ص ٨٦.

(٤) المقريزى: خطط جـ٢ ص ٨٧.

(٥) البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢٧١ - ٢٧٢.

ولما عهد المعز لدين الله الفاطمى فى أوائل سنة ٣٦٣هـ إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بالإشراف على الخراج، صار ابن كلس يجبى خراج الدولة بالدينار المعزى. فانحطت بذلك قيمة الدينار الراضى. ومن ذلك يتضح لنا كيف حملت الحكومة الفاطمية أهالى البلاد المصرية على التعامل بنقودها.

ولم تكتف الحكومة الفاطمية بأن يكون الدينار المعزى وحدة للتعامل، فأصدرت دراهم جديدة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، وقررت أن يكون كل ثمانية عشر درهما بدينار(١). ومن المرجح أن ضرب الدراهم الفضية فى ذلك العهد إنما أريد به تيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن، وهكذا أصبحت مصر تتعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية.

---

(١) الكرملى: «كتاب النقود العربية» ص ٥٨، ٥٩.

٣- مظاهر الحياة الاجتماعية

اتخذت الحياة الاجتماعية بمصر فى العصر الفاطمى مظاهر خاصة، كما تقلبت بين ألوان من البذخ والترف قل أن نجدها فى عصر آخر من عصور مصر الإسلامية. وقد تجلى بذخ الخلفاء فيما أورده المقريزى[١] عن خزائن الفرش والأمتعة والجواهر والخيم والشراب، كما نستدل أيضاً على ترفهم من القصور التى بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولأفراد أسرتهم، ومن أشهرها القصر الشرقى الكبير. وكان به عدة أبواب، منها: باب الذهب وتعلوه منظرة، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة، يقف فيها الجنود فى يومى العيدين، وتعرف برحبة العيد، وباب الديلم، وقد أسس العزيز بهذا القصر قاعة الذهب التى يجتمع فيها مجلس الملك[٢]. وكانت مؤثثة بأفخم الأثاث ومزينة بالستور والطنافس الحريرية.

وليس أدل على مظاهر العظمة وأبهة الحياة الاجتماعية عند الخلفاء فى آخر العصر الفاطمى من هذا الوصف الذى كتبه غليوم رئيس أساقفة صور عن زيارة رسولى أملريك[٣] ملك بيت المقدس للقصر الفاطمى فى عهد الخليفة العاضد ، ومما جاء فيه[٤]. «... وسار السفراء يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة ، وفيه زخارف أنيقة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم ... فوجدوا فى هذا القصر حراساً عديدين ، وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة ، وقادوا السفراء فى ممرات طويلة.. ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف ، وتحيط به أروقة

---

(١) خطط، جـ١، ص ٤١٦ - ٤٢٥.

(٢) المقريزى: خطط، جـ١، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٣) ورد اسمه فى بعض المراجع. Amaury.

(٤) Stanley Lane-Poole, Salah El Din and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, pp.86-89.

زكى حسن: كنوز الفاطميين، ص ٧٤ - ٧٦.

ذات أعمدة، وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان. وكان فى وسط الفناء نافورة، يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام... وفى هذا المكان حل محل الحراس المرافقين للسفراء بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة، فساروا بصحبة المبعوثين من قبل الملك أملريك فى أفنية جديدة أشد جمالا وإبداعا .. وبعد أن عبر السفيران أبواباً عديدة وصلا إلى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة. وقد فاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك. وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين، متقلدين أسلحتهم... وأدخل المبعوثان فى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان. ولم يكن فى هذه القاعة أحد، لكن شاور خر راكعاً فور دخوله.. ثم ارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق.. وظهر (السلطان العاضد) لأعين السفراء وكان على وجهه نقاب يخفيه تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة.

وكان الوزراء الفاطميون يعيشون عيشة الترف، فجعل يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى فى قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه، وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه، كما اتخذ بقصره طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية ويتقلدون السيوف ويتمنطقون بالمناطق[1].

كذلك كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى مترفا فى حياته، فاتخذ مسكنه فى دار الملك التى بناها سنة ٥٠١هـ، وجعل فيها محال خاصة تقام فيها الأسمطة فى الأعياد، واتخذ فى أحد أبهائها مجلساً، يجلس فيه للعطاء، وقد وجد فى هذه الدار بعد وفاته ما لا يحصى من الأدوات، وتسعون ألف ثوب عتابى

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢ ص ٤٤١، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية جـ٢ ص ٦٣٣.

(نوع من الثياب الحريرية)، وثلاثة خزائن ممتلئة بالثياب الدبيقية من صنع تنيس ودمياط، وخزانة للطب. أضف إلى ذلك أربعة آلاف من البسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد، وكان للأفضل مجلس شراب به ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات، منهن أربع بيض من كافور، وأربع سود من عنبر، وكن مرتديات أفخر الثياب ومتزينات بأثمن الحلى. وكان الأفضل إذا دخل من باب هذا المجلس نكسن رؤوسهن إجلالا له، فإذا أخذ مكانه فى صدر المجلس استوين قائمات[1].

وكان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى مولعاً بالبساتين، فبنى لأحدها سورا يشبه سور القاهرة، وحفر به بركة كبيرة، كما بنى فى وسط هذا البستان منظرة على أربعة أعمدة من الرخام، وزرع حواليها شجر النارنج، وجلب إليه كثيراً من الطيور المسموعة وسرح فيه كثيراً من الطواويس[2].

اهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد الدينية فى شئ كثير من الأبهة والعظمة فمنها عيد الفطر، وعيد الأضحى، ورأس السنة الهجرية، ومولد النبى ﷺ، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ومولد ولديه الحسن والحسين، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، ويوم عاشوراء، هذا إلى مواسم أخرى وهى ليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه.

وكان يقام فى ليلة عيد الفطر بالإيوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم، يبلغ طوله نحو ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع، وتنثر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية، فإذا ما انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه، وفتحت أبواب القصر والإيوان على مصاريعها ، وهرع الناس

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٥٨.

(٢) المقريزى: خطط، جـ٢، ص ٣٧٩.

من جميــع الطبقات إلى السـماط الخليفى ، وتنــاولوا عليه من الطـعام بمشهد من الخليـفة ووزرائه [١] ، وحينـما تبزغ الشمـس يخرج الخليـفة فى موكـبه إلى الصـلاة. وفى ذلك يقـول المقــريزى : «وفى يوم العيـد ركب العـزيز بالله لصـلاة العـيـد وبين يـديه الجنائب والقــبــاب والعـسكر فى زيه ، من الأتراك والديلم والعـزيزية والإخشـيدية والكافـورية ، وأهل العـراق بالديبا ج المثـقل والسـيوف والمناطق الذهب ، وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر والسروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة ، وعليـها الرجالة بالسـلاح، وخرج بالمظلة الثـقيلة بالجـوهر ، وبيـده قضيب جده عليه السلام، فصلى على رسمه وانصرف». وإذا ما عاد الخليفة من الصـلاة، وجـد سمـاطاً آخر، فيـجلس وأمـامه مـائدة من فضـة ، يقـال لها المدورة وكـانت توضـع عليـهـا أوانى الذهب والفضـة الزاخـرة بألوان الطعـام ، وقـبالتـهـا سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو، نثرت عليه الأزهار والرياحين وصفت على جـانبيـه الأطباق الحـافلة بصنوف الطيور والحلوى وكـان يجلس إليـه رجـال الدولة والعظماء.

أمـا عيد الأضـحى، فيـحتفل فى أول يوم منه بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو الذى اتبع فى عيد الفطر، غير أنه يمتاز بخروج الخليفة إلى المنحر ثلاث مرات متواليات فى أيامه الثلاثة الأولى واشتراكه فى إجراءات النحر. وكان الخليفة إذا انقضى اليوم الثالث خـلع على وزيره ثوبه الأحمر الذى كان يرتديه يوم العيد[٢].

وكان احتفال الفاطميين بعيد رأس السنة الهجـرية مثال الروعة والبهاء .

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ٩٧

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥١١ - ٥١٢

وقد أورد لنا المقريزى[1] وصفاً لمراسم الاحتفال بهذا العيد؛ فذكر أنهم كانوا يعدون العدة للاحتفال به منذ العشر الأخير من شهر ذى الحجة فى كل سنة، حيث يبدأ المستخدمون والعمال فى إعداد آلات موكب الخلافة من الأسلحة وغيرها. وإذا ما أصبح اليوم التاسع والعشرون من هذا الشهر، تأهب الخليفة لعرض الخيل، فيخرج راكباً من قصره، وينزل بمكان يقال له السد حيث يجلس فى مكان محجوب بالستائر.

أما الوزير، فيركب فى هذا اليوم من داره وبصحبته الأمراء، فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء وظل راكباً حتى باب الدهاليز بقصر الخليفة حيث ينزل هناك ويسير محاطا بحاشيته وغلمانه وأولاده وأقاربه، ثم يجلس فى المكان المعد له، وحينئذ ترفع الستائر التى بجانبه فيرى الخليفة جالساً، فيقف الوزير ويسلم عليه؛ ثم يتلو القراء بعض آيات مناسبة لعيد رأس السنة. وبعد أن يتموا تلاوتهم، يشرع الخليفة فى عرض الخيل، وإذا ما فرغ من عرضها، عاد القراء إلى تلاوة بعض آيات الذكر الحكيم إيذاناً بانتهاء الحفل.

وفى صباح أول المحرم يركب الوزير ، مرتدياً الثياب الفاخرة ، ومتقلداً سيفاً من الذهب، إلى قصر الخليفة ، وبين يديه الأمراء ركباناً ومشاة وأمامه أولاده وإخوته . فإذا وصل القصر دخل من بابه راكبا إلى دهليز يعرف بدهليز العمود حيث يترجل على مصطبة هناك ؛ وبعد قليل يرفع صاحب المجلس الستر، فيظهر الخليفة فى ثيابه البيضاء متقلداً السيف، وبيده قضيب الملك مكسو بالذهب المرصع بالدر والجوهر، وحينئذ يشرع الأمراء فى الخروج وبعدهم الوزير الذى يركب دابته، ويقف قبالة القصر بهيئته، ثم يخرج الخليفة وحواليه الأستاذون.

(١) خطط، جـ١ ص٤٤٦ - ٤٥٠.

ويبدأ الموكب الخلافى فى السير، يتقدمه الأمراء وطائفة من العسكر والأساتذة المحنكون[١]، ثم الخليفة يحيط به مقدمو صبيان الركابة متقلدين سيوفهم ويزيد عددهم على ألف رجل. ويسير خلف دابة الخليفة فريق من صبيان الركاب لحفظ أعقابه، ثم يأتى الخليفة وفى ركابه قوم من أقوياء الأجناد، يبلغ عددهم خمسمائة، خلفه الطبول والصنوج، وطوائف الجند من الرجالة والفرسان. وإذا وصل الخليفة إلى الجامع الأقمر بالقماحين، سارع الوزير إلى الوقوف بين يديه، فيحييه الخليفة بإشارة خفية، ثم يعود الموكب الخلافى إلى القصر.

كذلك اهتم الخلفاء الفاطميون بالاحتفال بليلة مولد النبى ﷺ احتفالا باهراً يليق بمكانته العظيمة فى نفوس المسلمين. وكان الاحتفال بمولد النبى بدعة فى نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية ، لكن أهل الصلاح والورع من المسلمين رغبة منهم فى تكريم النبى ، رأوا منذ بداية القرن الرابع الهجرى أن يحتفلوا بمولده[٢] . ومن المظاهر الدينية المألوفة فى هذا العيد قراءة السيرة النبوية فى المساجد.

وكانت ليالى الوقود – وهى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان – من أشهر المواسم التى اختصت بها الدولة الفاطمية، ففيها تضاء جميع المساجد بعد غروب الشمس وتبدو القاهرة فى حلل بديعة من الأنوار، ويخرج الناس إلى الجامع الأزهر الذى تضاء حافاته بالمشاعل ويعقد فى صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة ،[٣] وكان جمهور المسلمين

---

(١) جمع أستاذ محنك. وهو رجل مدرب، وكان يتلثم بطرف عمامته. ومن الأساتذة المحنكين: صاحب المجلس وصاحب الرسالة، وصاحب بيت المال.

(انظر. القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣. ص ٣٨٤، ٣٨٥).

(٢) انظر: متز: الحضارة الإسلامية. ص ٢٥٠.

(٣) المقريزى: خطط، جـ١، ص ٤٦٦ – ٤٦٧.

فى مصر يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون بشهر رمضان، واستمر الاحتفال بها إلى وقتنا الحاضر.

وكان شهر رمضان من أهم المواسم الدينية التى عنى الفاطميون بإحيائها، فيحتفل فى أول يوم منه بركوب الخليفة من القصر الشرقى الكبير ويصحبه وزيره، وحوله حرسه الخاص، فيخترق موكبه شوارع القاهرة ومصر حتى جامع عمرو بن العاص الذى كان يعرف إذ ذاك بالجامع العتيق، فإذا وصل إلى بابه وجد الخطيب فى انتظاره، وبيده المصحف المنسوب خطه إلى على بن أبى طالب، فيتناوله الخليفة ويقبله عدة مرات، ثم يأمر بتوزيع بعض المنح المالية على خطيب المسجد ومؤذنيه. وإذا ما انتهى الخليفة من أداء الصلاة بالمسجد، استأنف سيره إلى دار الملك. وكان ركوب الخليفة فى غرة رمضان يقوم عند الفاطميين مقام الاحتفال برؤية الهلال عند أهل السنة. وكان يهدى فى أول شهر رمضان للأمراء وأرباب الدولة أطباق من الحلوى بوسط كل منها صرة من ذهب، كما كانت ترسل مثل هذه الأطباق إلى أفراد أسرهم.

كانت المآدب والأسمطة مظهراً من مظاهر الاحتفال بالمواسم والأعياد فى العصر الفاطمى بمصر ، فقد عنى الفاطميون بتنظيمها عناية خاصة ، كما بالغوا فى إعدادها سواء أكان ذلك فى المساجد أو فى قصر الخليفة أو فى دار الوزير ، ففى قصر الخليفة كانت تقام الأسمطة فى المكان المعروف بقاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك . وكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أول من سن تلك السنة ، وحذا خلفاؤه حذوه ، فكانوا يقيمون الأسمطة من اليوم الرابع من شهر رمضان إلى السادس والعشرين منه. وكان يدعى إليها قاضى القضاة والأمراء وكبار رجال الدولة من القواد والموظفين. ويمثل الخليفة فيها الوزير ، فإن تغيب ناب عنه ابنه أو أخوه . وكانت أصناف المأكولات من

الوفـرة بحـيث يسـتطيع الناس أن يأخـذوا منها مـا يريدون. وبلـغ مـا ينفق على سماط شهر رمضان ثلاثة آلاف دينار.

وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون عل الركوب فى الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان إلى جوامع الحاكم بأمر الله والأزهر وعمرو بن العاص على التوالى لصلاة الجمعة. ويشرف صاحب بيت المال فى كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأثيث المسجد الذى يصلى فيه الخليفة صلاة الجمعة. وكانت توضع فى المقصورة ثلاثة طنافس دبيقية أو سامانية بيضاء بعضها فوق بعض وكان ينصب على جانبى المنبر ستران، يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة، وعلى الآخر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين كتابة واضحة.

وكان الخليفة يرتدى فى هذا اليوم ثوباً من الحرير الأبيض، ويتعمم بعمامة من هذا النوع من الحرير ويحمل قضيب الملك بيده، ويصل إلى الجامع فى موكب حافل يحف به بعض الأشراف وعدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الآخرين[١]، ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس. ويدخل الخليفة المسجد يحيط به قراء الحضرة الذين كانوا يصحبونه من القصر وهم يرفعون أصواتهم بتلاوة القرآن بنغمات شجية، ثم يستريح قليلا فى قاعة الخطابة التى كان يحرسها قائد القواد وفريق من حرسه، ويظل جالساً فى هذه القاعة حتى ينتهى الأذان، فيدخل إليه قاضى القضاة ويقول له: «السلام على أمير المؤمنين، الشريف القاضى، ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله» فيصعد الخليفة المنبر ويلقى خطبة قصيرة تعد لهذا الغرض فى ديوان الإنشاء، يتلو فيها آية من القرآن، ثم يصلى على أبيه وجده (محمد صلى الله عليه وسلم) ويعظ الناس وعظاً بليغاً موجزاً، ويتوسل بدعوات فخمة، تليق به، ويختم خطبته بالدعاء للوزير وبنصر

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣، ص ٥١١.

الجيش وخذلان الكفار والمخالفين، وإذا ما فرغ من خطبته قال: اذكروا الله يذكركم، ثم يؤم المصلين، فيقرأ فى الركعة الأولى ما هو مكتوب على الستر يمين المحراب، وفى الركعة الثانية ما هو مكتوب على الستر الأيسر. وحينما يكبر، يبلغ الوزير عنه، ثم قاضى القضاة ، ثم المؤذنون.. فإذا ما انتهت الصلاة خلا المسجد من الناس وخرج الخليفة، يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى القضاة وداعى الدعاة عن يساره، وحرسه الخاص. ويعودبموكبه إلى مقره على الهيئة التى اتخذها فى ذهابه إلى الجامع[١]. وكانت هذه الرسوم تتكرر فى صلاة الجمعتين الأخيرتين من رمضان.

وكان الشعب المصرى يستقبل هذه المواسم بمظاهر الفرح والسرور إلا يوم عاشوراء[٢]، فقد كان يعتبر يوم حزن عام، تعطل فيه الأسواق، ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد فى رثاء الحسين؛ وفى نفس اليوم يقام سماط يسمى سماط الحزن فى بهو بسيط. وكان يقدم عليه خبز الشعير والعدس والجبن؛ ويحضره الخليفة ملثما ومرتدياً الثياب القاتمة[٣].

كذلك أولى الخلفاء الفاطميون الاحتفال بوفاء النيل كثيراً من اهتمامهم، فكانوا يركبون إلى المقياس بالروضة إذا ما بلغ الفيضان ستة عشر ذراعاً . وقد ذكر ناصر خسرو أنه كان يحتفل بهذا العيد بحضور الخليفة وفى ركابه عشرة آلاف فارس ، يمتطون الخيول المطهمة ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة،

---

(١) المقريزى: خطط، جـ٢، ص ٢٨٠ – ٢٨١.

(٢) اليوم الذى قتل فيه الحسين بن على بن أبى طالب بكربلاء (١٠ المحرم سنة ٦١هـ).

(٣) المقريزى: خطط جـ١، ص ٤٣١، حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص ٤٦٢.

ويلى هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة تقودها طائفة من الجند[١].

وكان موكب الخليفة يخترق شوارع القاهرة ومصر، يحف به أفراد الشعب حتى يأتى منظرة «دار الملك» بالقرب من المقياس، فيركب منها فى العشارى الخاص بصحبة وزيره وكبار رجال حاشيته قاصداً المقياس، فإذا دخله صلى هو والوزير ركعتين، ثم يضع الخليفة بيده الزعفران والمسك فى إناء خاص يسلمه لصاحب بيت المال الذى يناوله بدوره للموظف المختص بالإشراف على المقياس، فيقوم هذا الموظف بتخليق المقياس (أى تعطيره)، بينما يتناوب قراء الحضرة تلاوة القرآن، ثم يخرج الخليفة راكباً فى العشارى، فإذا ما وصل دار الملك عاد بموكبه إلى القصر[٢].

وكانت تقدم الحلل إلى الوزراء وبعض الأمراء والأشراف وغيرهم فى عيد الفطر، كما كان الخلفاء يجودون على كبار رجال الدولة بالخلع، فى غرة رمضان وفى الجمع الثلاث الأخيرة منه وفى وفاء النيل. وكان يمنح الشعراء والكتاب والأعيان الذين يحضرون إلى القاهرة فى تلك المواسم حللا من الحرير الخالص، بعضها مزركش بالذهب[٣].

وكانت الكسوات التى تخلع على وجوه الدولة ترفق برقعة من ديوان الإنشاء . وقد أورد لنا المقريزى[٤] صورة منها . وقد جاء فيها : « لم يزل أمير المؤمنين منعما بالرغائب ، مولياً إحسانه كل حاضر من أوليائه وغائب. وإنك أيها الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه ، وأحراهم باستنشاق نسيمه.

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ص ٦٦٩ .

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣، ص ٥١٢ – ٥١٣، ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ص ١٠٦ – ١٠٧.

(٣) المقريزى: خطط، جـ١ ص ٤١٠.

(٤) المقريزى: خطط جـ١ ص ٤١٢ .

إذ كنت فى سماء المسابقة بدراً، وفى موائد المناصحة صدراً، وممن أخلص فى الطاعة سراً وجهراً وحظى فى خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفاً وسير له ذكراً. ولما أقبل هذا العيد السعيد، والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم، ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم. ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه فى المواسم التى تجاريه بكسوات على حسب منازلهم، تجمع بين الشرف والجمال، ولا يبقى بعدها مطمح للآمال، وكنت من أخص الأمراء المقدمين».

كذلك كانت توزع فى عيد الفطر النقود الذهبية والفضية والملابس والأطعمة على الأضياف والموظفين على اختلاف درجاتهم ، هذا إلى ما كان يمنحه كبار الموظفين فى غرة المحرم من النقود الذهبية التى كانت تضرب خصيصاً لهذا اليوم فى العشر الأخير من ذى الحجة. وتسمى نقود الغرة، وهى دنانير رباعية ودراهم خفاف مدورة. وكان هؤلاء الموظفون يقبلونها على سبيل التبرك من الخليفة[١].

وقد اعتاد الخلفاء عند ركوبهم إلى المناظر أن يمنحوا رجال القصر والشعراء والمؤذنين والقراء ومن إليهم فى الحاشية المنح الوفيرة، فيحمل أحد الموظفين كيساً من الحرير فيه خمسمائة دينار لتوزع فى الطريق الذى يجتازه الخليفة على الرجال والنساء والقراء الذين يقرءون القرآن على جانبى الطريق.

* * *

كثر الاهتمام بالغناء والموسيقى فى العصر الفاطمى بمصر، فأقبل وجوه القوم فى مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات. وكان معظم

---

(١) القلقشندى. صبح الأعشى: جـ٣ ص ٥٠٥.

المغنيات من الجوارى؛ فيحكى أنه اشتريت من بغداد جارية تجيد الغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر، فغنت له ولجلسائه، ولم يزل غناؤها يزيده طربا حتى قال لها تمنى ما شئت، فتمنت أن تغنى ما غنت ببغداد، فلم يجد الأمير بداً من الوفاء لها وأرسلها إلى بغداد.

وكانت مجالس الطرب والغناء واللهو تقام على شواطئ الخليج بالقاهرة فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله؛ فلما تجلى الانحلال الاجتماعى من جراء هذه المجالس، أصدر الحاكم قوانين يمنع بعضها سماع الموسيقى ويحرم البعض الآخر الغناء والملاهى التى تعد خطراً على الأخلاق العامة[1].

على أن هذه المجالس مالبثت أن عادت إلى الظهور بعد وفاة الحاكم؛ فقد أولع بعض من جاء بعده من الخلفاء بالغناء والموسيقى؛ فكان الخليفة المستنصر بالله يميل إلى سماع المغنيات. وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان من بين مظاهر الاحتفال باستيلاء البساسيرى على بغداد وإقامة الخطبة باسم المستنصر على منابرها أن وقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة تنشد بعض الأبيات، فأعجب المستنصر بغنائها وأجزل لها العطاء[2].

وكان اللعب بالخيال معروفاً بمصر فى العهد الفاطمى، فيخرج الناس فى بعض الأعياد ويطوفون شوارع القاهرة بالخيال والتماثيل والسماجات، كما احترف بعضهم التقليد والمحاكاة، وبلغ من حذق بعض الناس المحاكاة أنهم كانوا يقلدون طوائف السكان على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم. وكان الأهالى يقبلون على سماع نوادرهم[3].

(١) انظر: المقريزى: خطط جـ٢ ص ٢٨٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ١٢.

(٣) المقريزى: خطط، جـ١ ص ٢٠٧، متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص ٢٢١.

وقد ذكر المقريزى[1] أنه كان يحتفل بمصر فى ذلك العهد بعيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة، وأن العامة كانوا يطوفون فى هذا العيد بأسواق المدينة بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه فى خروجهم، غير أنه حدث أن اشتد الغلاء سنة ٤١٥هـ، فامتنع التجار عن الدفع. ولما علم بذلك الخليفة الظاهر الفاطمى أمرهم بدفع ما جرت به العادة وبأن يطلق للمحتفلين ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية من الهبات، فخرجوا إلى سجن يوسف بالجيزة ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والسماجات، كما خرج الخليفة إلى الجيزة وأقام يومين لمشاهدة فريق المحتفلين، فأعجب بهم واستظرفهم[2].

وكانت المجالس الاجتماعية تعقد فى قصور الخلفاء والوزراء والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة \كما كانت المجالس الخاصة تعقد فى داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث التى تتجلى فيها اللباقة العقلية، لقضاء أوقات فراغهم فى لعب الشطرنج والنرد[3]\

(١) المقريزى: خطط، جـ١ ص ٢٠٧.

(٢) المقريزى: خطط جـ١ ص ٢٠٧.

(٣) انظر: متز الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص ٢١٤ – ٢١٥

٤- الحياة الثقافية

اهتم الفاطميون منذ استقر سلطانهم فى مصر بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية فضلا عن الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الإسماعيلية كالفقه والتفسير. وكان للجامع الأزهر أثر كبير فى النهوض بالحياة الثقافية فى مصر، وقد ظهرت فكرة الدراسة به فى أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمى حين قام قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان المغربى بشرح كتاب «الاقتصار» الذى وضعه أبوه؛ ويشتمل على مسائل فقهية استمدها من أئمة أهل البيت، كما أن أخاه أبا عبدالله محمد بن النعمان جلس فى ربيع الأول من سنة ٣٨٥هـ بقصر الخليفة لقراءة علوم أهل البيت[1].

وفى أوائل عهد العزيز بالله جلس الوزير يعقوب بن كلس بالجامع الأزهر، وقرأ على الناس رسالة ألفها فى الفقه الشيعى على المذهب الإسماعيلى، تسمى الرسالة الوزيرية، تضمنت ما سمعه فى ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز. وكان يفد إلى سماعه الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة. وصار ابن كلس يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطوراً بداره، يقرأ فيها مصنفاته على الناس.

على أن الجامع الأزهر مالبث أن فاقت شهرته جميع المساجد الجامعة فى مصر منذ أن أشار الوزير يعقوب بن كلس سنة ٣٧٨هـ على الخليفة العزيز بتحويله إلى معهد للدراسة بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية، فاستأذنه فى أن يعين بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس، على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر، فرحب العزيز بذلك ورتب لهؤلاء الفقهاء أرزاقاً شهرية ثابتة، وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار

(١) انظر: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق للمؤلف ص ٢٣٠.

الأزهر[١]. وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمى إلى أن بنى جامع الحاكم بأمر الله، فانتقل إليه الفقهاء لإلقاء دروسهم.

كذلك اهتم الفاطميون بإنشاء المكتبات، فألحقوا بالقصر الشرقى الكبير مكتبة زودوها بأندر المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون حتى تميزت على غيرها من مكتبات العالم الإسلامى بما فى خزائنها من كتب قيمة.

وكان تجار الكتب يعرضون على موظفى مكتبة القصر أندر الكتب التى يعثرون عليها، وقد روى المقريزى[٢] أن رجلا أحضر إلى العزيز بالله نسخة من كتاب الطبرى اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز أمناء المكتبة، فأخرجوا من الخزائن ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبرى، منها نسخة بخط يده، كما كان بخزانة العزيز ما يزيد على ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد.

وكثيراً ما كان الخليفة الفاطمى يزور خزانة الكتب فى القصر الشرقى فيأتى راكبا، ثم يترجل ويأخذ مجلسه فوق دكة منصوبة، ويمثل بين يديه أمين الخزانة ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين، ويعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته فى مجلسه الخاص[٣].

وكان بمكتبة القصر أربعون خزانة كتب فى سائر العلوم، وتحتوى كل خزانة على عدة رفوف، والرفوف مقطعة بحواجز، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائة ألف مجلد فى الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء.

---

(١) حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص ١٢٧.

(٢) المقريزى: خطط، جـ١، ص ٤٠٨.

(٣) المقريزى: خطط، جـ١، ص ٤٠٩.

ومن المراكز الثقافية بمصر دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ وأطلق عليها هذه التسمية رمزاً إلى الدعوة الشيعية لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة. وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم، حوت الكثير من الكتب فى سائر العلوم والآداب، من فقه ونحو ولغة وكيمياء وطب، وسمح لسائر الناس على طبقاتهم التردد عليها . وفى ذلك يقول المقريزى[1]: «وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر».

كان الطلاب يتلقون فى دار الحكمة إلى جانب علوم آل البيت وفقه الشيعة الكثير من علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم، وهكذا اختلفت مناهج التعليم فى هذا المعهد عن مناهج التعليم بالمساجد الفاطمية المعاصرة، إذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية، بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية. وكان بين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والطب والنجامة، من أمثال ابن يونس المنجم، وأبى على الحسن بن الهيثم، وعلى بن رضوان[2].

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الأساتذة وما كان لها من مناهج منوعة جمعت بين الدراسات العلمية والفقهية أن تجتذب كثيراً من أعلام المشرق، من أمثال الرحالة الفارسى ناصر خسرو، والداعى الحسن بن الصباح اللذين وفدا إلى مصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى.

---

(١) خطط، جـ١، ص ١٥٨.

(٢) خطاب عطية: التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى، ص ١٥٨.

ظلت دار العلم مفتوحة ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب إلى سنة ٥١٦هـ حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى بإغلاقها بسبب ماوصل إليه من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة وهى الشافعى والحنفى والمالكى، يترددان على دار العلم، وأن كثيرا من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب. على أن فترة إغلاق دار العلم لم يطل أمدها، فقد أعادها الخليفة الآمر إلى ما كانت عليه بعد وفاة الأفضل[١] .

فقدت مكتبة القصر الفاطمى عدداً غير قليل من الكتب القيمة التى كانت بها فى غضون الشدة العظمى التى حلت بمصر فى عهد المستنصر بالله، فاستولى الجند والأمراء على الكثير مما فى خزانة الكتب[٢] . وعلى الرغم من ذلك كله، فقد بقى فى خزائن القصر بعض كتب لم تصل إليها يد العبث، واستطاع الفاطميون فيما بعد أن يعوضوا بعض ما فقدوه، فجلبوا إلى مكتبة القصر كثيراً من الكتب الجديدة حتى أصبح فى قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة[٣] .

* * *

تجلى نشاط الحركة العقلية فى مصر منذ أن اتخذ الفاطميون القاهرة حاضرة لخلافتهم، ففتح الخليفة المعز لدين الله أبواب قصره للعلماء والطلاب، وأباح لهم جميعاً الاطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر، وحذا الخلفاء من بعده حذوه، فصاروا يعقدون المجالس العلمية والأدبية بقصورهم، ويدعون إليها الفقهاء والعلماء والأدباء، فيتناظرون بحضرتهم . ولم تكن هذه المجالس تقل فى

(١) المقريزى خطط : جـ ١ ، ص ٤٥٩

(٢) المقريزى خطط : جـ ١ ، ص ٤٠٩

(٣) انظر كتاب «كنوز الفاطميين» ص ٢٩ ، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٤٢٩

قيمتها التعليمية عن الدروس التى تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة .

وقد أدى مجئ الفاطميين إلى مصر بمذهب شيعى له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة فى مصر إلى ظهور فريقين من العلماء، يعمل أولهما على تأييدهم، ويفند الفريق الآخر آراءهم[1]؛ واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية فى تأليف الكتب. وكان لأبى حنيفة النعمان المغربى وأبنائه وهم جميعاً من كبار رجال القضاء والأدب الفضل الأكبر فى نشر الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الإسماعيلية .

وقد عاصر أبو حنيفة الفاطميين بالمغرب . وكان مالكى المذهب كسائر أفراد أسرته، ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلى وقدم إلى مصر هو وأبناؤه فى ركب المعز. ويعد النعمان من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية، وله فى الفقه الإسماعيلى عدة مؤلفات منها : «دعائم الإسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام». وقد استغل النعمان ميوله المذهبية فى تأليف هذا الكتاب حتى إننا نراه يضيف إلى قواعد الإسلام الخمس الولاية وهى حب أهل البيت، والطهارة[2] .

وكان دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب دعائم الإسلام فى أحكامهم، ونهج الوزير يعقوب بن كلس فى كتابه «مصنف الوزير» منهج كتاب الدعائم، وأشاد بذكر هذا الكتاب حميد الدين الكرمانى داعى الحاكم بأمر الله فى فارس، فى كتابه «راحة العقل» حتى جعله فى المرتبة التى تلى القرآن والحديث[3].

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، جـ ١ . ص ١٨٨

(٢) H.Hamdani, (J.R.A.S),1933,p.369.

انظر « كتاب المعز لدين الله» ص ٢٥٨ - ٢٥٩

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٤٧٦

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الإسماعيلى وتشجيعهم فقهاءه، فقد ظهر فى عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية نخص بالذكر منهم أبا بكر محمد النعالى المالكى المتوفى سنة ٣٨٠هـ. وكانت حلقته بجامع عمرو بن العاص، تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها(١) . وكان فقهاء المذهب السنى فى مصر يستنكرون تعاليم الفاطميين ولكنهم لايستطيعون الجهر بذلك .

كان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب أثره فى ظهور طائفة كبيرة منهم فى مصر، فاشتهر من المؤرخين فى العصر الفاطمى: أبو الحسن على بن محمد الشابشتى؛ اتصل بخدمة الخليفة العزيز، فولاه خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه: وتوفى سنة ٣٨٨هـ فى أيام الحاكم بأمر الله. ومن مصنفاته كتاب الديارات ، أورد فيه أخباراً طريفة عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر، وما قيل فى كل منها من الأشعار(٢) . كما نبغ من المؤرخين فى هذا العصر الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبحى الذى ولد بمصر سنة ٣٦٦هـ وتوفى سنة ٤٢٠هـ. وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وخاصته، وقد تولى فى أيامه بعض المناصب الهامة، وشغف بكتابة التاريخ. وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى «تاريخ مصر» ولايوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا . وقد نقل عن هذا الكتاب كل من المقريزى وأبى المحاسن.

ومن أعلام المؤرخين : أبو عبد الله القضاعى الذى ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى؛ وتوفى بها سنة ٤٥٤هـ وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى. وقد ولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، وأوفده هذا الخليفة سفيراً إلى تيودورا إمبراطورة الدولة

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، جـ ١ ص ١٩٧.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ص ٤٣٦ .

البيزنطية سنة ٤٤٧هـ ليحاول عقد صلح بينها وبين مصر، وله عدة مصنفات فى الفقه والتاريخ ، منها «مناقب الإمام الشافعي وأخباره»، وكتاب فى خطط مصر سماه «المختار في ذكر الخطط والآثار»، يتضمن تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره. وكان هذا الكتاب عوناً للمقريزى على كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»(١) .

ومن الكتاب والمؤرخين الذين ظهروا فى أواخر العصر الفاطمى أبو القاسم على بن منجب الصيرفى. وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة والشعر، كما برع فى الخط، وتدرج فى بعض الوظائف حتى ولى ديوان الإنشاء للخليفة الآمر بأحكام الله، وظل فيه إلى سنة ٥٣٦هـ. ومن تصانيفه كتاب «قانون ديوان الرسائل»، و «الإشارة إلى من نال الوزارة» الذى ألفه للمأمون البطائحى وزير الآمر، وتتبع فيه وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه. وتوفى ابن الصيرفى فى عهد الخليفة الحافظ سنة ٥٤٢هـ(٢) .

كذلك نبغ فى العصر الفاطمى بعض العلماء من أمثال أبى على محمد بن الحسن بن الهيثم، وأصله من البصرة، ثم أتى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل. وكان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة، وخاصة فى الطبيعيات والرياضيات. وقد ألف نحو مائتى كتاب فى الرياضة والطبيعة والفلسفة. ولم يزل مكباً على التأليف حتى توفى سنة ٤٣٠هـ(٣) .

واشتهر من الأطباء والفلاسفة أبو الحسن على بن رضوان وهو مصرى

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٠٢

(٢) انظر : ياقوت، معجم الأدباء ، جـ ١٥ ، ص ٧٩ – ٨٠ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٨٠.

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٠٤

المولد من الجيزة، وقد نشأ فقيراً معدماً، وأصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء فى البلاط الفاطمى. وتدل الكتب التى ألفها فى الطب على سعة فكرة واطلاعه. كما أن له كتباً فى الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة(١) . وكان على بن رضوان مجدداً فى صناعته، فلم يعمد فى مؤلفاته إلى نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار، وظل طيلة حياته فى كفاح وعمل متصل إلى أن توفى فى حوالى سنة ٤٦٠هـ فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى(٢) .

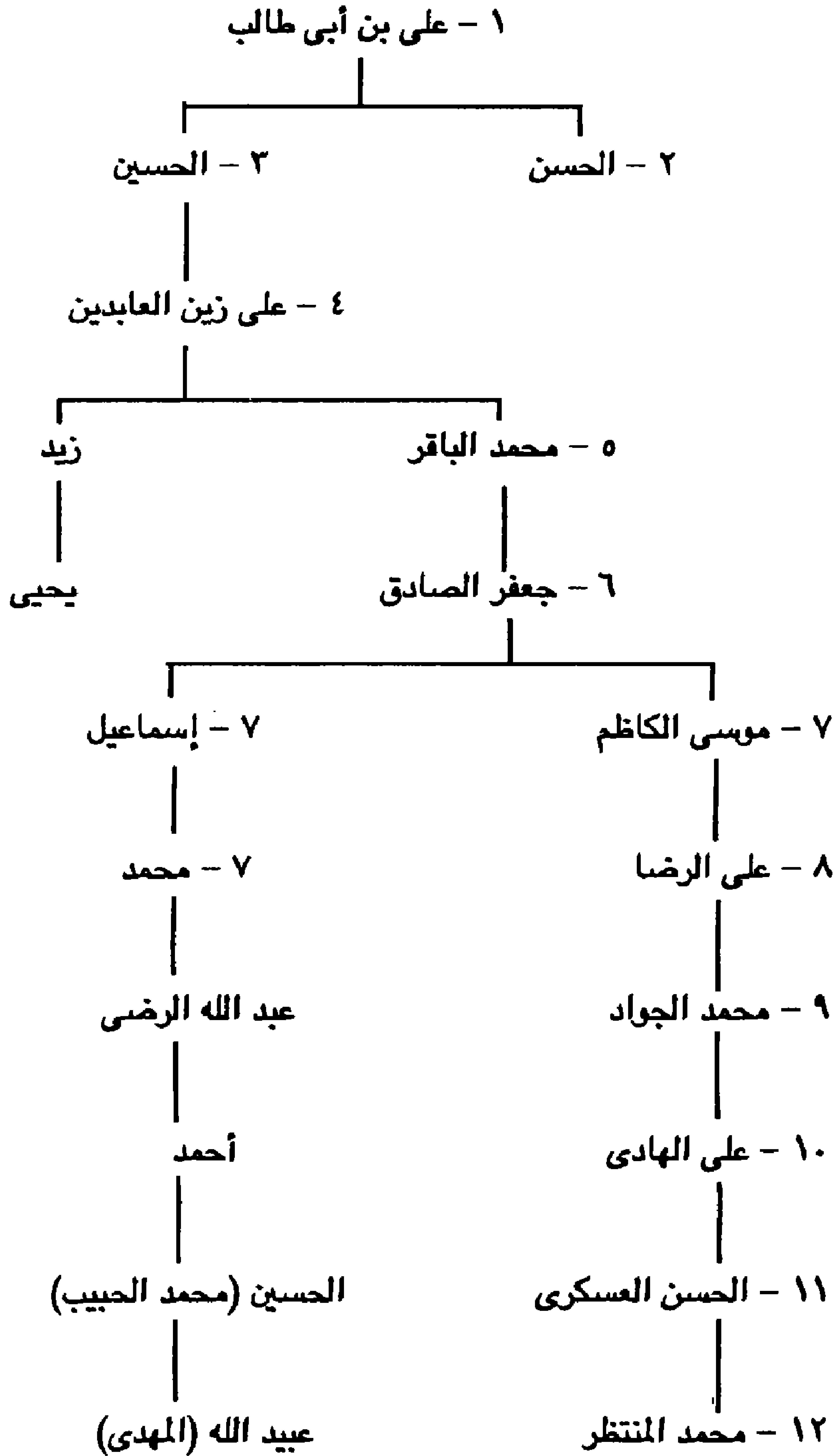
وقصارى القول أن الحركة العلمية فى العصر الفاطمى، سارت بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء، فتفوقت على مثيلتها فى العهد الطولونى والإخشيدى، كما تميزت بنشاطها، فكان فى مصر طائفة من علماء الدعوة الفاطمية والمؤرخين والفلاسفة والأدباء أسهموا فى النهضة الثقافية التى تجلت فى ذلك العصر .

---

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، جـ ٢ ص ١٠٥

(٢) ابن القفطى . أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

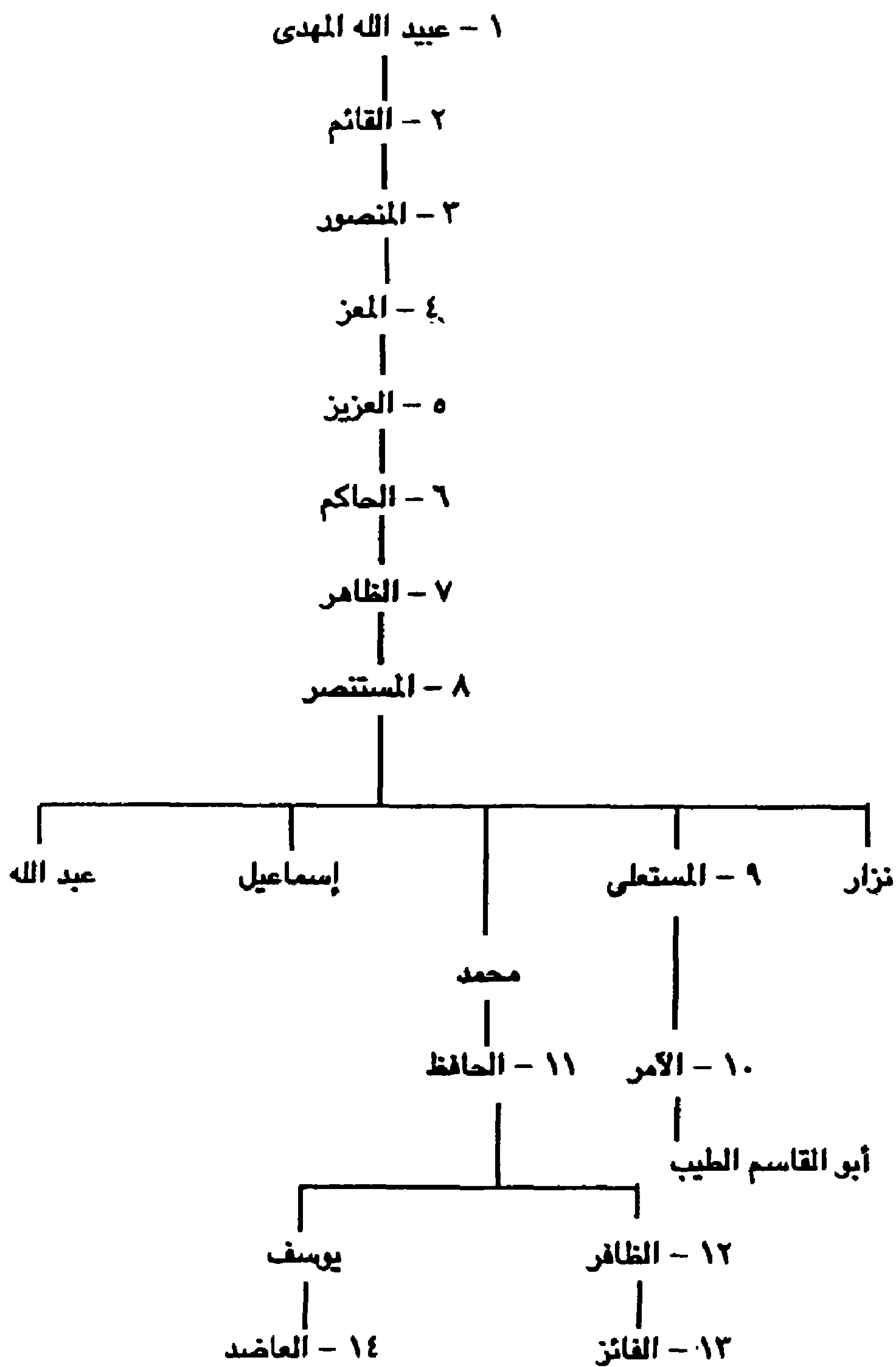
الإسماعيلية والأثنا عشرية :



الخلفاء الفاطميون

١ – عبيد الله المهدى	٢٩٧ – ٣٢٢هـ (٩٠٩ – ٩٣٤م)
٢ – القائم (محمد أبو القاسم)	٣٢٢ – ٣٣٤هـ (٩٣٤ – ٩٤٥م)
٣ – المنصور (إسماعيل أبو طاهر)	٣٣٤ – ٣٤١هـ (٩٤٥ – ٩٥٢م)
٤ – المعز لدين الله (معد أبو تميم)	٣٤١ – ٣٦٥هـ (٩٥٢ – ٩٧٥م)
٥ – العزيز بالله (نزار أبو منصور)	٣٦٥ – ٣٨٦هـ (٩٧٥ – ٩٩٦م)
٦ – الحاكم بأمر الله (المنصور أبو على)	٣٨٦ – ٤١١هـ (٩٩٦ – ١٠٢٠م)
٧ – الظاهر لإعزاز دين الله (على أبو الحسن)	٤١١ – ٤٢٧هـ (١٠٢٠–١٠٣٥م)
٨ – المستنصر بالله (معد أبو تميم)	٤٢٧ – ٤٨٧هـ (١٠٣٥–١٠٩٤م)
٩ – المستعلى (أحمد أبو القاسم)	٤٨٧ – ٤٩٥هـ (١٠٩٤–١١٠١م)
١٠ – الآمر (المنصور أبو على)	٤٩٥ – ٥٢٤هـ (١١٠١–١١٣٠م)
١١ – الحافظ (عبد المجيد أبو الميمون)	٥٢٤ – ٥٤٤هـ (١١٣٠–١١٤٩م)
١٢ – الظافر (إسماعيل أبو المنصور)	٥٤٤ – ٥٤٩هـ (١١٤٩–١١٥٤م)
١٣ – الفائز (عيسى أبو القاسم)	٥٤٩ – ٥٥٥هـ (١١٥٤–١١٦٠م)
١٤ – العاضد (عبد الله أبو محمد)	٥٥٥ – ٥٦٧هـ (١١٦٠–١١٧١م)

الخلفاء الفاطميون



مصادر الكتاب

---

١ - ابن الأثير : (ت ٦٣٠هـ، ١٣٢٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم .

الكامل فى التاريخ (١٢ جزءاً - القاهرة ١٠٣٣هـ)

٢ - أحمد أمين :

ظهر الإسلام . (الجزء الأول - القاهرة ١٩٤٥م)

٣ - الأدفوى : ت (٧٤٨هـ) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن على الأدفوى الشافعى .

الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد .

٤ - ابن أبى أصيبعة (ت ٦٦٧هـ، ١٢٧٠م) أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين .

كتاب عيون الأنباء فى أخبار الأطباء (جزءان - القاهرة ١٢٩٩ - ١٣٠٠م)

٥ - أوليرى : دى ليسى . O'Leary, (De Lacy),

A Short History of the Fatimid Khalifate, London,1923.

٦ - البغدادى : (ت ٤٢٩هـ، ١٣٠٧م) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر.

الفرق بين الفرق (مطبعة المعارف - القاهرة ١٣٢٨هـ ١٩١٠م)

٧ - البكرى (ت٤٨٧ هـ، ١٠٩٤م) أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكرى .

المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (طبعة دى سلان D. Slan).باريس سنة (١٩١١)

٨ – حتى : فيليب Hitti : Philip

History of Syria, London,1951.

٩ – حسن إبراهيم حسن :

(أ) الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص (١٩٣٢م) .

تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٥٩م)

١٠ – (ب) تاريخ الإسلام السياسى (الجزء الثالث . القاهرة – ١٩٤٦م)

١١ – حسن إبراهيم حسن وطه شرف :

(أ) عبيد الله المهدى إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب (القاهرة ١٩٤٧م)

١٢ – (ب) المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر (القاهرة ١٩٤٨م)

١٣ – حسن حبشى :

(أ) الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧م)

١٤ – (ب) نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨م)

١٥ – الحمادى اليمانى : محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى (من فقهاء السنة فى أواسط القرن الخامس الهجرى)

كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة

١٦ – ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ، ١٤٠٥ – ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر . (٧ أجزاء – بولاق ١٢٨٤هـ) .

١٧ - ابن خلكان : (ت ٦٨١هـ، ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس

أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى .

وفيات الأعيان . (جزءان - بولاق ١٢٨٣هـ)

١٨ - ابن الداية : (٣٣٠هـ أو ٣٤٠هـ) أبو جعفر أحمد بن يوسف.

سيرة أحمد بن طولون - نشر فولرز ١٨٩٥م

١٩ - دحلان : (ت ١٣٠٤هـ) أحمد زينى دحلان المكى

خلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام

٢٠ - راشد البراوى :

حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين (القاهرة ١٩٤٨م)

٢١ - زكى محمد حسن :

كنوز الفاطميين . (القاهرة ١٩٣٧م)

٢٢ - السلاوى : أحمد بن خالد الناصرى :

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٤أجزاء - القاهرة ١٣١٠- ١٣١٢هـ)

٢٣ - ابن سعيد : (ت ٦٧٣هـ، ١٢٧٥م) على بن موسى المغربى :

المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق (ليدن سنة ١٨٩٨ - ١٨٩٩م)

٢٤ - سيدة إسماعيل كاشف :

(أ) مصر فى فجر الإسلام (القاهرة - ١٩٤٧)

٢٥ - (ب) مصر فى عصر الإخشيديين (القاهرة ١٩٥٠م)

٢٦ - السيوطى : (ت ٩١١هـ، ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين

(أ) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة (القاهرة - ١٣٥١هـ)

٢٧ - (ب) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . جزءان (القاهرة - ١٣٢١هـ)

٢٨ - أبو شامة : (ت ٦٦٥هـ ، ١٢٦٧ - ١٢٦٨م) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامة .

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين

٢٩ - أبو شجاع : (ت ٤٨٨هـ، ١٠٩٥م) محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين أبو شجاع .

ذيل كتاب تجارب الأمم (طبعة H.F. Amedroz)

٣٠ - ابن شداد (ت ٦٣٢هـ، ١٢٣٤م) القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم .

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

٣١ - الشهر ستانى (٥٤٨هـ، ١١٥٣م) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .

الملل والنحل . (٥ أجزاء - القاهرة ١٣١٧هـ) .

٣٢ - عبد المنعم ماجد :

نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . جزءان (القاهرة ١٩٥٣م) .

٣٣ - عبد القادر الأنصارى : الشيخ زين الدين عبد القادر بن البدرى

محمد بن إبراهيم الأنصارى، من علماء القرن العاشر الهجرى :

درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة (مخطوط بدار الكتب المصرية)

٣٤ - ابن عذارى (توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى) أبو عبد الله محمد المراكشى

البيان المغرب فى أخبار المغرب (٣ أجزاء) (نشر دوزى، باريس ١٩٣٠م) .

٣٥ - عريب بن سعد القرطبى (ت ٣٦٦هـ، ٩٧٦ - ٩٧٧م) :

صلة تاريخ الطبرى (القاهرة ١٣٠٢هـ)

٣٦- عمارة اليمنى. (ت ٥٦٩هـ، ١١٧٤م) أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد الحكمى اليمنى الملقب بنجم الدين :

تاريخ اليمن (نشر Henri Cassels kay)

٣٧- ابن العميد: (ت ٦٧٢هـ، ١٢٧٣م) الشيخ المكين جرجس بن العميد: تاريخ المسلمين (ليدن ١٦٢٥م).

٣٨- الطبرى: (ت ٣١٠هـ) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى. تاريخ الأمم والملوك - ٨ أجزاء - القاهرة ١٣٥٨هـ/ ١٩٢٩م.

٣٩- طه شرف:

دولة النزارية أجداد أغاخان (القاهرة ١٩٥٠م).

٤٠- أبو الفدا: (ت ٧٣٢هـ، ١٣٣١م) إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه.

المختصر فى أخبار البشر (٤أجزاء- القاهرة - ١٣٢٥هـ).

٤١- فييت: جاستون فييت

(أ) Histoire de la Nation Egyptienne,7 Vols., Paris,1931-194

Vol. Iv,1939: L'Egyte Arabe (ed. by Hanoutau),1932.

٤٢ - (ب) Précis de L'Histoire d'Egypte, Le Caire.Tome II, L'Egypte Musulmane).

٤٣- ابن القفطى: (ت ٦٤٦هـ، ١٢٤٨م) جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالوهاب.

إخبار العلماء بأخبار الحكماء. (القاهرة - ١٣٢٦هـ).

٤٤- ابن القلانسى: (ت ٥٥٥هـ، ١١٦٠م) أبو يعلى حمزة:

ذيل تاريخ دمشق (بيروت سنة ١٩٠٨م).

٤٥- القلقشندى: (ت ٨٢٣ هـ ١٤١٨م) أبو العباس أحمد صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (١٤ جزءاً - القاهرة - ١٩١٣ - ١٩١٧م).

٤٦- الكرملى. أنستاس مارى:

النقود العربية وعلم النميات: (القاهرة - ١٩٣٩م).

٤٧- الكندى: (ت ٣٥٠هـ، ٩٦١م) أبو عمر محمد بن يوسف:

كتاب الولاة وكتاب القضاة (ليدن - ١٩٠٨م).

٤٨- لينبول: ستانلى. Lane-Poole: Stanley

(أ) AHistory of Egypt in The Middle Age, London,1901.

٤٩- (ب) Salah El Din and the Fall of the Kingdom of Jerusalem London,1893.

٥٠- متز آدم. Metz: Adam

Die Renaissance des Islams.

نقله إلى العربية محمد عبدالهادى أبو ريدة بعنوان:

(الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) جزءان - القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤١م.

٥١- أبو المحاسن: (ت ٨٧٤هـ ١٤٦٩م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (نشر دار الكتب المصرية).

٥٢- محمد جمال الدين سرور:

(أ) النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب (الطبعة الرابعة ١٩٦٤م).

٥٣- (ب) النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق (الطبعة الثالثة ١٩٦٤م).

٥٤- (جـ) تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق - (القاهرة ١٩٦٥م).

٥٥- محمد كامل حسين.

أدبنا العربى فى عصر الولاة (القاهرة ١٩٦١)

٥٦- المقريزى: (ت ٨٤٥هـ، ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على:

(أ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (جزءان بولاق ١٢٧٠هـ).

٥٧- (ب) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا. (جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨) نشر دار الفكر العربى.

٥٨- ابن مماتى: (ت ٦٠٦هـ، ١٢٠٩م) القاضى الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد.

٥٩- ابن منجب الصيرفى: (ت ٥٤٢هـ، ١١٤٧م) أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على.

الإشارة إلى من نال الوزارة. (القاهرة ١٩٢٤م).

٦٠- ابن ميسر . (ت ٦٧٧هـ، ١٢٧٨م) محمد بن على بن يوسف بن جلب.

تاريخ مصر. طبعة هنرى ماسيه Henri Masse

٦١ - النعمان . (٣٦٣هـ، ٩٧٣م) أبو حنيفة المغربى.

المجالس والمسايرات. ثلاثة أجزاء. مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة .

٦٢ - النوبختى : (ت٣٠٢هـ ، ٩١٤م) أبو محمد الحسن بن موسى.

كتاب فرق الشيعة (استانبول - ١٩٣٢م) .

٦٣ - هبة الله الشيرازى : (ت ٤٨٠هـ ، ١٠٧٧م) المؤيد فى الدين هبة الله .

سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة .

(نشر د. محمد كامل حسين القاهرة ١٩٤٩م)

٦٤ - هيد : و Heyd. W

Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age. 2vols., Leipzig,1925.

٦٥ - ابن واصل : (ت ٦٩٧هـ، ١٢٩٧ - ١٢٩٨م) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .

(نشر جمال الدين الشيال – ١٩٦٣، ١٩٥٧م)

٦٦ – ياقوت : (ت٦٢٦هـ ١٢٣٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى

(أ) معجم البلدان – ١٠ أجزاء (القاهرة – ١٩٠٦م)

٦٧ – (ب) معجم الأدباء – ٢٠ جزءا (طبعة أحمد فريد رفاعى ١٦٣٩ – ١٩٣٨)

٦٨ – يحيى بن سعيد الأنطاكى : (ت٤٥٨هـ ، ١٠٦٦م) :

صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق»
(جزءان – بيروت ١٩٠٩م) .

٦٩ – اليمانى : محمد بن محمد :

«سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى من سلمية ووصوله إلى سجلماسه»
(نشر إيفانوف – مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة – ديسمبر ١٩٣٦) .

٧٠ – السجلات المستنصرية :

سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن
وغيرهم (نشر وتحقيق عبد المنعم ماجد؛ سنة ١٩٥٤)

٧١ – مجموعة الوثائق الفاطمية :

(جمعها وحققها جمال الدين الشيال؛ القاهرة ١٩٥٨)

٧٢ – تاريخ كامبردج العصور الوسطى .

Cambridge Mediaeval History, vol. IV.

١- فهرس الأعلام

(تنبيه) اعتمدنا فى ترتيب الأسماء على أول الاسم دون المبالاة بأداة التعريف، وبألفاظ الأب والابن، مثل ذلك : أبو الحسن على بن رضوان ذكرناه فى حرف الحاء وأبو على أحمد بن الأفضل ذكرناه فى حرف العين، وأبو يزيد مخلد ذكرناه فى حرف الياء.

٢ – فهرس الأمم والقبائل والعشائر والطوائف

٣- فهرس البلاد والمدن والمواضع والجبال والأنهار